Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (5), Issue (5) : 30 Apr 2021
P: 53 - 78
ISSN: 2522- 3380
مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (5)، العدد (5) : 30 إبريل 2021م
ص: 53 - 78

Anthropology between academic and instrumental (Analytical- critical study of the nature of the relationship between anthropology and colonialism)

Hossam Aldin Mahmoud Fayad
Faculty of Arts || Mardin Artuklu University || Turkey

Abstract: The research aimed to clarify the concept of anthropology, explain the factors and causes of its emergence as a science that studies primitive societies, and analyzes and critiques the nature of the correlation between them and colonialism. It also sought to study the effect of instrumental rationalism on the whole of anthropological studies. The research relied on the critical analytical method in its study of the subject of the study. The research also reached a set of results, the most important of which is the existence of a correlation between the emergence of anthropology as an academic discipline concerned with the study of primitive societies and the concept of expansionist European colonialism. In addition to that anthropology had an important role in understanding the developments that humankind experienced, but the findings of anthropology were not used in the service of mankind, but rather remained locked in the offices of the colonial authority and its followers in order to exploit them to control developing societies. In the end, the research recommended the necessity to formulate an ethical charter to guide the paths of anthropological studies in a way that does not conflict with the human goals and objectives for which they were found. And activating the role of anthropology departments in Arab and Islamic universities on the basis of linking the university to society to prepare studies and research on the problems and issues that these societies suffer in proportion to their specificity so as not to deviate from their historical context in employing their results objectively.

Keywords: Anthropology, academic, instrumental, colonialism.

الانثروبولوجيا بين الأكاديمية والأداتية (دراسة تحليلية- نقدية لطبيعة العلاقة بين الانثروبولوجيا والاستعمار)

حسام الدين محمود فياض
كلية الآداب || جامعة ماردين ارتوقلو || تركيا

الملخص: هدف البحث إلى توضيح مفهوم الانثروبولوجيا وتبيان عوامل وأسباب نشأتها كعلم يدرس المجتمعات البدائية، وتحليل ونقد طبيعة العلاقة الارتباطية بينها وبين الاستعمار. كما سعت إلى دراسة أثر العقلانية الأداتية الاستعمارية على مجمل الدراسات الانثروبولوجية. وقد اعتمد البحث على المنهج التحليلي النقدي في دراسته لموضوع الدراسة، كما توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها وجود علاقة ارتباطية بين نشوء الانثروبولوجيا كتخصص أكاديمي يهتم بدراسة المجتمعات البدائية وبين مفهوم الاستعمار الأوروبي التوسعي. بالإضافة إلى أن الانثروبولوجيا كان لها دوراً مهماً في فهم التطورات التي عاشتها البشرية، لكن النتائج التي توصلت إليها الانثروبولوجيا لم توظف في خدمة البشرية بل بقيت حبيسة في مكاتب سلطة الاستعمار وأتباعه من أجل استغلالها للسيطرة على المجتمعات النامية. وفي النهاية أوصى البحث بضرورية صياغة ميثاق أخلاقي لتوجيه مسارات الدراسات الانثروبولوجية بما لا يتعارض مع

الأهداف والغايات الإنسانية التي وجدت لأجلها. وتفعيل دور أقسام الانثروبولوجيا في الجامعات العربية والإسلامية من منطلق ربط الجامعة بالمجتمع لإعداد دراسات وأبحاث عن المشكلات والقضايا التي تعاني منها تلك المجتمعات بما يتناسب مع خصوصيتها حتى لا تخرج عن سياقها التاريخي في توظيف نتائجها بشكل موضوعي.

الكلمات المفتاحية: الانثروبولوجيا، الأكاديمية، الأداتية، الاستعمار.

المقدمة.

يرى معظم المتخصصين في العلوم الاجتماعية أن التطورات النوعية التي أحرزتها الانثروبولوجيا، في دراسة المجتمعات الإنسانية، بدايةً من الاثنوغرافيا والاثنولوجيا وصولاً إلى مرحلة تأسيس الانثروبولوجيا العامة، قد ساعد على منحها مكانة بارزة في مجال دراسة المجتمعات البدائية ونشر الثقافة الحداثوية والتقنية فيها، وتغير مسار العلاقة القائمة ما بين دول الشمال والجنوب من السيطرة الاستعمارية إلى **المثاقفة*** والتأثير والتنوير والاستقلال الذاتي.

انقسمت المدارس الانثروبولوجية بكل ما تحمل من توجهات وأهداف إلى **حقل علمي وأربعة مدارس**** هي: (الانكليزية والألمانية والفرنسية والأمريكية) تتنوع أسسها النظرية والمنهجية وزاوية اقترابها من الواقع المدروس ما بين التطورية والمادية التاريخية والوظيفية والبنيوية والانتشارية والانثروبولوجيا الفلسفية والوجودية... إلخ.

وقد ساد تصور إيجابي في الأوساط الأكاديمية حول الإنجازات غير المسبوقة التي حققتها الانثروبولوجيا في مجال دراسة نشأة الإنسان والتطورات التي لحقت به، ودراسة وتحليل وتفسير الأنظمة الثقافية والاجتماعية في المجتمعات البدائية بهدف فهم آلية عمل عاداتها وتقاليدها التي قد تبدو غريبة، هذا إلى جانب التركيز على المعتقدات الغيبية والمثيرة التي توجه مجمل الحياة الاجتماعية وتعمل على تماسكها وتحقيق الاستقرار فيها، مما مهد الطريق إلى معرفة بنية تلك المجتمعات وتحديد الكيفية التي تدرجت بها الإنسانية خلال مراحل تطورها حتى وصلت على ما هي عليه في المجتمعات المتقدمة والمعاصرة، كما ساعدت الانثروبولوجيا في تحديد الأطر الحضارية للمجتمعات الإنسانية لمعرفة عوامل وأسباب التغير الاجتماعي ومقارنها بالمجتمعات المعاصرة لاستنتاج مؤشرات وتوقعات اتجاه التغير المحتمل، في الظواهر الإنسانية، وبالتالي إمكانية التنبؤ بمستقبل الجماعات البشرية التي أجريت عليها الدراسة.

من خلال المنطلقات السابقة يمكننا اعتبار أن أغراض العلم الجديد كانت أغراضاً بريئة للوهلة الأولى بما تحمله من أهداف وغايات إنسانية. لكن هذه البراءة في حقيقة الأمر لم تدوم طويلاً إذ تحول هذا العلم وبسرعة كبيرة إلى أداة في يد السلطة أو السلطات الحاكمة في البلدان الأوروبية، التي كانت تشهد مع توسع البحث والدراسة في الانثروبولوجيا توسعاً جغرافياً مذهلاً في كل مناطق العالم، وبالأخص مع بداية عصر الاستعمار الأوروبي، عصر البحث عن المستعمرات، عن أسواق وعن يد عاملة وعن مواد خام وعن زبائن جدد يشترون منتجات صناعية غير متوفرة في بلدانهم.

لذا يسعى البحث إلى التدقيق والتحري ومراجعة الوظيفة التي تؤديها الانثروبولوجيا كعلم، وبالأخص فيما يتعلق بعلاقتها مع السلطة باعتبارها الأداة المعرفية، التي سهلت للدول الاستعمارية إحكام قبضتها على الشعوب الأقل تطوراً حسب مقاييس الحضارة المركزية الأوروبية، مما فرض قواعد جائرة لتحديد مسار وطبيعة العلاقات بين دول الشمال المتقدم والجنوب النامي تم تجسيدها من خلال تكريس مفاهيم الهيمنة والسيطرة الاستعمارية على

---

* **المثاقفة** هي التفاعل بين الثقافات على أساس الاحترام والاعتراف المتبادل بالخصوصيات والتعايش والتسامح والتواصل.

** لمزيد من القراءة والاطلاع انظر. **(بارث وآخرون ، فريدرك. 2017).**

بلدان الجنوب (العالم الثالث). بناءً عليه سنحاول تحديد الإطار النظري والمفاهيمي والمنهجي لدراسة وتحليل ونقد العلاقة الارتباطية بين الانثروبولوجيا والاستعمار، من خلال ما يلي:

قضية الدراسة:

تركز قضية البحث على دراسة العلاقة الارتباطية بين الانثروبولوجيا والاستعمار بهدف الكشف عن العوامل والأسباب التي أدت إلى تحويل الانثروبولوجيا من علم أكاديمي يدرس المجتمعات البدائية إلى أداة بيد الاستعمار تسعى إلى تحقيق أهدافه. كما تحاول قضية البحث إثبات أكاديمية الانثروبولوجيا كعلم متخصص في دراسة المجتمعات البدائية في جميع مجالاتها بهدف معرفة الأطر التطورية والحضارية للحياة الإنسانية. أم أن الانثروبولوجيا أداة تم توظيفها من قبل العقلانية الأداتية لخدمة المجتمعات الغربية في تحقيق طموحاتها الاستعمارية من خلال جمع المعلومات والبيانات عن المجتمعات البدائية بهدف السيطرة عليها ونهب ثرواتها وخيراتها.

تساؤلات الدراسة:

يطرح البحث التساؤل الرئيسي التالي: ما هي طبيعة العلاقة الارتباط بين الانثروبولوجيا والاستعمار؟ وهذا التساؤل يحلينا للإجابة على التساؤلات الفرعية التالية:

1- ما الانثروبولوجيا كتخصص أكاديمي؟
2- ما مفهوم الاستعمار وأشكاله؟
3- ما طبيعة العلاقة بين العقلانية الأداتية والاستعمار؟
4- هل يوجد علاقة ارتباطية بين نشأة الانثروبولوجيا وظهور الاستعمار؟
5- إلى أي مدى وصلت الدراسات الانثروبولوجيا في تحقيق طموحاتها في خدمة المجتمعات الإنسانية؟

أهداف الدراسة:

يهدف البحث بناءً على تقدم إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، وهي كالآتي:

1. توضيح مفهوم الانثروبولوجيا في مختلف مجالاتها.
2. توضيح مفهوم الاستعمار بجميع أشكاله.
3. شرح طبيعة العلاقة بين العقلانية الأداتية والاستعمار.
4. الكشف عن العلاقة الارتباطية بين الانثروبولوجيا والاستعمار.
5. توضيح أهمية الدراسات الانثروبولوجية في خدمة المجتمعات الإنسانية.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية البحث في الأبعاد العلمية التالية:

1. تسليط الضوء على الأسباب الحقيقة لتأسيس علم الانثروبولوجيا باعتباره علم يختص في دراسة المجتمعات البدائية.
2. كشف العلاقة الارتباطية بين الانثروبولوجيا والاستعمار بغية توضيح موقف الاستعمار الاستغلالي منها.
3. توضيح آلية تفكير الاستعمار الأداتية للكشف عن أساليبه الملتوية في تحقيق أطماعه الاستعمارية.

4. لفت أنظار الباحثين في العلوم الاجتماعية إلى ضرورة التمييز بين الانثروبولوجيا كعلم أكاديمي وبين الاستعمار كسلطة سياسية غاشمة تسعى إلى توظيف نتائج الدراسات الانثروبولوجيا في تحقيق مصالحها على حساب المجتمعات الأخرى.
5. تنبيه الباحثين لعملية تسييس العلوم الاجتماعية ضد المبادئ الإنسانية، وبالأخص فيما يتعلق بالدراسات الانثروبولوجيا وما يترتب عليها من آثار كارثية ضد إنسانية.

مبررات اختيار البحث: تنحصر في الاعتبارات التالية:

1. توضيح أسباب نشأة الدراسات الانثروبولوجية باعتبارها انعكاساً مباشراً لأحداث السياق الأوروبي وتفاعلاته.
2. رغبتي المعرفية في تطوير قدراتي العلمية والمعرفية في مجال الأبحاث والدراسات الانثروبولوجية.
3. لفت انتباه القائمين على عملية تخطيط منظومة التعليم العالي في الأقطار العربية إلى أهمية افتتاح أقسام للدراسات الانثروبولوجية في جامعاتها، مما ينعكس إيجاباً على فهم متطلبات عملية التنمية الشاملة واللحاق بركب المجتمعات المتقدمة.
4. الرغبة في إثراء المكتبة العربية بهذا النوع من الدراسات لتوضيح دور الدراسات الاجتماعية وبالأخص الانثروبولوجية في دراسة وتحليل وفهم المجتمعات الإنسانية وتطويرها.

الدراسات السابقة:

يسعى الباحث في هذه الخطوة إلى استعراض مجموعة من الدراسات السابقة المشابهة ذات العلاقة المباشرة في موضوع البحث، وهي كالآتي:

- **دراسة العربي، بوحسون. (2011). "الاستشراق والانثروبولوجيا والاستعمار (دراسة تحليلية لطبيعة العلاقة)"** العدد: 02. الجزء الثاني. مجلة الإنسان والمجتمع. الجزائر. أثار الباحث من خلال دراسته مجموعة من التساؤلات حول طبيعة العلاقة بين الاستشراق والانثروبولوجيا من خلال الكتابات التي تضعهما في علاقة مباشرة بالاستعمار الغربي. كما هدفت الدراسة إلى معرفة نظرة كل من مفهوم الاستشراق والانثروبولوجيا والاستعمار للآخر (الإنسان غير الغربي) وكيفية التعامل معه، وبالأخص شعوب العالم الإسلامي وشعوب العالم الثالث. وسعت الدراسة أيضاً إلى توضيح المفاهيم السابقة وعلاقتها المباشرة بالاستعمار. وتوصلت الدراسة إلى نتيجة مفادها أن الامبريالية الغربية والرؤى الإيديولوجية للبرجوازية الأوروبية استطاعت أن توظف كلاً من الاستشراق والانثروبولوجيا لخدمة أغراضها الاستعمارية، وبالرغم من بروزهما أحياناً كعلوم ومناهج، وأحياناً أخرى كمساعدين لمسارات وتوجهات السياسة الغربية. وفي هذا السياق لا ننكر أن هذه الدراسة قد تشابهت مع البحث الحالي من حيث طرح قضية الدراسة (علاقة الانثروبولوجيا بالاستعمار)، إلا أنها اختلف جذرياً في تناول عناصر البحث ومناقشتها.
- **دراسة منصور، مرقومة. (2016). "الانثروبولوجيا والنزعة الاستعمارية الحديثة"**. المجلد:4. العدد:8، مجلة التدوين. الجزائر. حاول الباحث من خلال دراسته إلى توضيح نشأة وتطور الانثروبولوجيا كعلم خلال فترة ظهور الاستعمار الأوروبي الحديث موضحاً كيف تم تكريس علوم الإنسان للسيطرة على الإنسان من خلال دراسة المجتمعات المستعمَرة دراسة وصفية تحليلية متعمقة في كافة الجوانب، كما وضحت الدراسة أن علم الانثروبولوجيا لم يترك ميداناً من الميادين إلا وتطرق إليه بشكل أو بآخر في المجتمع المدروس سواء ثقافياً أو اجتماعياً أو سياسياً. بالإضافة إلى ذلك سعت الدراسة إلى توضيح كيف وظّف الاستعمار أدوات

هذا العلم لخدمة مصالحه مما أدى تشويه سمعته بسبب السيطرة الإيديولوجية عليه من السلطة السياسية الأوروبية. وفي النهاية توصلت الدراسة إلى رأي مفاده أنه يجب على الانثروبولوجيا التحرر من السيطرة الاستعمارية والإيديولوجية والتخلص من الوصمة التي لحقت بالانثروبولوجيين في تبرير خدمتهم للاستعمار، لإعادة روح الإنسانية لهذا العلم مما يساهم في تحقيق غايات نبيلة تسخر في خدمة الإنسان بعض النظر عن موقعه في السلم الحضاري. وفي النهاية يمكننا القول إن هذه الدراسة تقاطعت بشكل كبير مع البحث الحالي من حيث معالجة الفكرة المحورية وهي علاقة الانثروبولوجيا بالاستعمار، أما عن الاستفادة منها، فقد كان لها دور هام في لفت نظر الباحث إلى قدرة الاستعمار على تبرير الغزو وإذلال العلم.

تعليق على الدراسات السابقة:

وقد استفاد الباحث من الدراستين السابقتين في تعميق رؤيته وفهمه لطبيعة العلاقة القائمة بين الاستعمار والانثروبولوجيا وفي تحليله لموضوع البحث الحالي. كما ساهمت تلك الدراسات في إثراء وتدعيم الإطار النظري، والمنهجي، والتحليلي، للبحث من خلال مضامينها ومناقشاتها لموضوعاتها، كما ساعدت الباحث في تجسيد الإجراءات النظرية والمنهجية للبحث الحالي، فالهدف المحوري من ذلك هو البدء من حيث انتهى الباحثون السابقون حتى لا يكون هناك تكرار لدراسة ما سبق، ولإثراء المكتبة العربية بمزيد من الدراسات حول موضوع البحث برؤية جديدة.

3- منهجية البحث وإجراءاته.

تمهيد:

تمثل منهجية البحث لأي دراسة من الدراسات أهمية خاصة، حيث يمكن التوصل من خلالها إلى النتائج العلمية والموضوعية. وتقتضي منهجية البحث تحديد المنهج الذي سيتبع في البحث. وبناءً على موضوع البحث تم تحديد عناصر الإطار المنهجي، بما يلي:

1- **نوع الدراسة:** يندرج نوع الدراسة الحالية تحت أنواع البحوث الكيفية، التي تسعى إلى جمع وتحليل وتفسير ونقد البيانات والمعلومات بشكل سردي ومنطقي من أجل فهم قضية البحث المحددة. فالبحوث والدراسات التحليلية والنقدية " تهدف إلى تحليل ونقد موضوع البحث بل وتسعى إلى توضيح المتغيرات الفاعلة فيه وكيفية توظيفها في اتجاه معين، من خلال النظر إلى الموقف الاجتماعي نظرة كلية ضمن السياق العام الذي تحدث فيه، بالإضافة إلى رصد مدى الأثر الذي تحدثه تلك المتغيرات على البنية الأكاديمية للانثروبولوجيا والنتائج المترتبة عليها بناءً على أسس علمية ومنطقية (أبو زينة وآخرون، 2007: 34). كما تهدف إلى التثبت والتوضيح والتفسير لمؤسسات المجتمع المختلفة وطبقاته من حيث الثقافة ونمط الحياة بهدف تغييرها" (النعيمي وآخرون، 2009: 276). تحذف نتطرق فقط للمناهج المستخدمة

2- **منهج البحث:**

بناءً على موضوع البحث الحالي وتحقيقاً لأهدافه اعتمد البحث على المنهج التحليلي- النقدي في دراسة موضوع " الانثروبولوجيا بين الأكاديمية والأداتية (دراسة تحليلية لطبيعة العلاقة بين الانثروبولوجيا والاستعمار)، لمعرفة الأسباب الحقيقة الكامنة وراء نشوء الانثروبولوجيا العامة كفرع من فروع العلوم الاجتماعية.

يرى الناقد الماركسي لوسيان جولدمان أنه ليس هناك منهج بغير موضوع (يسين، 1991: 37). وهذا يعني أن قضية البحث هي التي تحدد المنهج الذي يتبع فيها، فكل دراسة منفردة قد تستدعي استخدام أكثر من منهج واحد، وفقاً لمبدأ المرونة المنهجية والتكامل المنهجي، الذي يدعو إلى عدم الاعتماد على منهج واحد في دراسة أي قضية

البحث. وهكذا نجد أن "فلسفة المنهج تستمد من فلسفة الموضوع، فيُصبغ المنهج بفلسفة الموضوع، وبذلك يعتبر المنهج الوعي بالموضوع من خلال الوعي بفلسفته والخطوات التي تُتبع من أجل اكتماله وتبيانه"(عقيل، 1999: 47).

يعتبر منهج التحليلي عملية من عمليات العقل الأساسية، فعندما نريد فهم وتفسير قضيةً ما، فإننا غالباً ما نجزئها إلى مكوناتها الأساسية ونحاول أن نعيدها إلى جذورها التي نشأت منها، وذلك لنبين أسسها التي أوجدتها، لتصبح أسبابها واضحة. بمعنى آخر إرجاع القضية البحثية إلى العوامل التي أدت إلى وجودها لتوضيح دورها في الواقع الاجتماعي، حتى يسهل فهمها (حسن، 2012: 190).

أما المنهج النقدي هو مجمل الإجراءات والعمليات الذهنية التي يقوم بها الباحث لإظهار حقيقة الأشياء والظواهر التي يدرسها، وهو بذلك طريقة في التفكير يتم من خلالها بناء تصور حول القضية موضوع الدراسة بغية الوصول إلى حلول لها (حامدي، 2016/2015: 7)، كما أن المنهج النقدي يسعى إلى اختبار توافق نظرية ما مع مبادئها" (فضل، 2002: 11)، لأن النقد ضرورة لازدهار الحقل المعرفي من حيث طبيعته التأسيسية والتأصيلية معاً. ليتمكن الناقد من التزود بالأصول والمعايير والأدوات التي تساعده على وضع الأسس المنهجية التي يمكن أن يتخذ منها سبيلاً يسلكه في نقده لقضية معينة (مرتضى، 2007: 53- 54).

الإطار التحليلي للبحث:

تتطلب أي دراسة جادة من الباحث وضع إطار تحليلي يساعد على فهم وتحليل المتغيرات والتفاعلات المتعلقة بقضية الدراسة، لأن هذا الإطار هو السبيل الذي يحدد لنا كيفية الوصول إلى تحقيق الهدف العام للدراسة. "ولأنه يعمل بمثابة المصباح الذي ينير الطريق للباحث في استكشاف المفاهيم الأساسية التي سيبنى في ضوئها البحث، وتحديد العلاقات بين تلك المفاهيم" (السعدي وآخرون، 2010: 197).

كما يعتبر الإطار التحليلي The Analytical Framework "بمثابة وسيط نظري يسترشد به الباحث عند دراسة ظاهرة ما، ويسهم كذلك في شرح النتائج التي يتم التوصل إليها، ومن ثم في تحقيق فهم أفضل للظواهر الاجتماعية" (غانم، 2008: 55).

لذا نقترح في هذا السياق أن يكون الإطار التحليلي للبحث مكوّن من عدة قضايا محورية يتم فيها الالتزام بالإجابة على تساؤلات البحث لتفسير قضية البحث على الشكل التالي:

- المبحث الأول: مفهوم الانثروبولوجيا كتخصص أكاديمي.
- المبحث الثاني: مفهوم الاستعمار وأشكاله.
- المبحث الثالث: العلاقة بين العقلانية الأداتية والاستعمار.
- المبحث الرابع: العلاقة الارتباطية بين الانثروبولوجيا والاستعمار.
- المبحث الخامس: أهمية الدراسات الانثروبولوجيا في خدمة وتنمية المجتمعات الإنسانية.
- النتائج والتوصيات
- المصادر والمراجع

المبحث الأول: مفهوم الانثروبولوجيا كتخصص أكاديمي:

بالرغم من قدم مصطلح الانثروبولوجيا في تاريخ المعرفة الإنسانية، إلا أن استعمالها بدأ فعلياً مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث ازداد الاهتمام بها وبالأخص في الأوساط الثقافية

الأنكلوساكسونية*، وكان هذا الاهتمام منصباً على الانثروبولوجيا البيولوجية أو الفيزيائية، أي أن الجسد كان محور اهتمامات الدراسات الانثروبولوجية ومركزها. وبعد ذلك جُمِعَ الموضوعين كليهما في موضوع واحد سمي بالانثروبولوجيا الاجتماعية (تيلوين، 2011: 17).

اصطلاحياً، يرجع مفهوم الانثروبولوجيا إلى الكلمة يونانية المكونة من شقين أساسيين هما: الإنسان Anthropo وعلم Logy، وتعني علم الإنسان وهو علم من العلوم الإنسانية الذي يهتم بدراسة مظاهر حياة الإنسان دراسة كلية وشمولية، كما يهتم بدراسة الإنسان من حيث قيمه (الجمالية، الدينية، الأخلاقية، الاقتصادية، الثقافية، الاجتماعية) ومكتسباته الثقافية (تيلوين، 2011: 19- 20)، وهو علم يركز على كل ما هو بدائي وبسيط في حياة الإنسان في المجتمعات المعزولة والصغيرة نسبياً. ولقد تعددت اهتمامات الانثروبولوجيا في الوقت الراهن ولم تعد تقتصر على دراسة المجتمعات البدائية فقط ولكن أصبحت تهتم بدراسة مشكلات المجتمع الحديث وخاصة المناطق المتخلفة.

خلاصة القول، " هو علم دراسة الإنسان في ثقافته وبنائه الاجتماعي وهو أيضاً " العلم الشمولي الذي يدرس الإنسان وأعماله، الذي تتمحور أبحاثه حول طبيعة الإنسان كمخلوق ينتمي إلى العالم الحيواني" (الحسني، 2009: 2015)، ويذكر جاك لومبار أن هذا العلم يهتم بدراسة المجتمعات البعيدة والغريبة، أي دراسة "الآخر" الذي يختلف عن الإنسان الغربي في ثقافته وعاداته وتقاليده، ودرجة وعيه وتقدمه، وهذه إشارة إلى الشعوب البدائية ذات الثقافة البسيطة والتقليدية مقارنة بثقافة الإنسان الأبيض "الغربي" (العربي، 2011: 44).

أما عن أهدافها، نجد أن الانثروبولوجيا تسعى إلى تحقيق مجموعة من الأهداف يمكن حصرها في الأمور التالية:

أ- وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفاً دقيقاً، وذلك عن طريق معايشة الباحث المجموعة المدروسة، وتسجيل كل ما يقوم به أفرادها من سلوكيات في تعاملهم، في الحياة اليومية.

ب- تصنيف مظاهر الحياة البشرية الحضارية بعد دراسة واقعية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، في سياق الترتيب التطوري الحضاري العام للإنسان: (بدائي، زراعي، صناعي، معرفي، تكنولوجي).

ج- تحديد أصول التغير الذي يحدث للإنسان، وأسباب هذا التغير وعملياته بدقة علمية بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وإيجاد عناصر التغيير المختلفة.

د- استنتاج المؤشرات والتوقعات لاتجاه التغير المحتمل، في الظواهر الإنسانية- الحضارية التي تتم دراستها، وبالتالي إمكانية التنبؤ بمستقبل الجماعة البشرية التي أجريت عليها الدراسة (الشماس، 2004: 15).

تنقسم الانثروبولوجيا عموماً إلى انثروبولوجيا اجتماعية تدرس النظم الاجتماعية والحضارية للإنسان بوصفه صانعاً للحضارة والمجتمع، "وهي بذلك تعد أقرب صلةً من حيث الموضوع والمنهج بعلم الاجتماع" (الفوال، 1982: 147)، وانثروبولوجيا ثقافية التي تنقسم بدورها إلى (الاثنولوجيا*، اللغويات، علم الآثار القديمة –

---

* الدول الأنجلو ساكسونية هي تلك الدول الناطقة باللغة الإنكليزية أي لغتها الرسمية هي اللغة الإنكليزية، أشهرها بريطانيا وأمريكا، كما نجد دولاً ناطقة باللغة الفرنسية نسميها الدول الفرنكوفونية.

* **الاثنولوجيا** علم الأقوام أو علم الأعراق البشرية يهتم بدراسة الشعوب وتصنيفها على أساس خصائصها، وميزاتها السلالية والثقافية، والاقتصادية، بما في ذلك من عادات ومعتقدات، وأنواع المساكن والملابس، والمثل السائدة لدى هذه الشعوب. وذلك بالاعتماد على **الاثنوغرافيا** التي تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين. بذلك تشكل المادة الاثنوغرافية قاعدة أساسية لعمل الباحث الاثنولوجي. فالاثنوغرافيا

الحفريات)، وانثروبولوجيا فيزيقية (طبيعية أي دراسة الإنسان في مظهره البيولوجي) (أوجيه، كولاين، 2008: 7) والفرع الأخير منها يعد أكثر ارتباطاً بالعلوم الطبيعية والبيولوجية منه بالعلوم الاجتماعية، " فهو مجال يحاول أن يبحث في أصل الإنسان، باعتباره نوعاً ينتمي إلى الجنس، والبحث في الطبيعة وفي مفهوم التطور والأسباب والعلل التي تتحكم في الاختلافات البيولوجية عند الإنسان ومقارنته بالأنواع الأخرى من الكائنات الحية" (تيلوين، 2011: 30).

وفيما يتعلق بظروف النشأة، ظهرت الانثروبولوجيا خلال القرنين الخامس والسادس عشر الميلادي خصوصاً بعد قيام الرحالة الجغرافيين بتجوال العالم والوصول إلى أماكن بعيدة لم يصلها الإنسان من قبل ومثل هذه الرحلات الجغرافية التي اكتشفت أراضي وقارات جديدة مهدت السبيل للانثروبولوجيين إلى دراسة شعوب هذه القارات دراسة انثروبولوجية وصفية تلقي الضوء على عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم ونظمهم الاجتماعية ومهنهم وأساليب حياتهم ومعتقداتهم وأديانهم. وقد سجل الانثروبولوجيون الأخبار والمعلومات والحقائق المفصّلة عن المعطيات المادية وغير المادية للمناطق التي درسوها وأحوال شعوبها ومعتقداتهم الدنيوية والدينية. "وهذا يعني أن للانثروبولوجيا جذورها التي تمتد إلى عصور قديمة، كما أن لها أصولها النظرية التي تشكلت عبر قرون متتالية، إلا أنها اتخذت لنفسها طابعاً أكاديمياً متخصصاً، وبدأت في بلورة موضوعاتها ومناهجها المميزة في نهاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين" (فهمي، 1986: 116).

انشغل علماء الانثروبولوجيا بدراسة المجتمعات الصغيرة، التي تختلف في طبيعتها تمام الاختلاف عن مجتمعاتنا من حيث إنها لا تخضع نسبياً للتغير ولا تتوافر عنها سجلات تاريخية، وكانت المناهج المستخدمة في دراستها تتسق مع هذه الحقائق. غير أن هذا الموقف قد تغير في الوقت الراهن. فمعظم المجتمعات البدائية قد تغيرت، وبدأت الانثروبولوجيا تتجه نحو الاهتمام بنفس المشكلات القيمية التي تهتم بها العلوم الاجتماعية الأخرى كعلم الاجتماع. وأصبحت النظرة إلى المجتمعات البدائية بوصفها تمثل موضوع الانثروبولوجيا الاجتماعية أخذت تختفي بصورة واضحة، كما أن انفراد علم الاجتماع بدراسة المجتمعات المتقدمة (دراسة معالم المجتمع والثقافة الغربية) هي مسألة موضع جدل إلى حد ما.

أدت أحداث السياق الاجتماعي وتفاعلاته وبالأخص الثورة الصناعية إلى تطور منهجية الانثروبولوجيا من حيث أسلوبها وقدرتها على دراسة وتحليل وتفسير واقع المجتمعات المختلفة عن مجتمعات العالم الغربي. فقد انقسمت الانثروبولوجيا بناءً على التطورات التي لحقت بها إلى ما يلي:

1- انثروبولوجيا الهواة (الرحالة البحاثة التمدّن): إن القول بوجود فارق بين أوروبا (المتمدنّة) والمجتمعات غير الخاضعة لها، يجب ألا ينسينا أن التوسع الأوروبي قد بدأ فعلاً مع عصر النهضة. صحيح أن أعمال العنف والنهب التي قام بها الأوروبيون حينذاك كانت ساذجة جداً ومليئة بالإعجاب تجاه ما يقوم به الإنسان البدائي، مما لا يسمح بالقول بوجود نظرية تتعلق بالمجتمعات غير الغربية في مرحلة التوسع الأوروبي تلك، أي قبل بدء الاستعمار، بل أثناء المرحلة المركنتيلية (لكلرك، 1990: 21).

بذلك يمكننا تقسيم مراحل تطور الانثروبولوجيا إلى مرحلتين رئيسيتين مرحلة الانثروبولوجيين الهواة كما يصفهم ريتشارد أنطون ثم مرحلة سيطرة علماء الانثروبولوجيا المحترفين. وستحدث في هذا السياق عن المرحلة الأولى التي تعتمد على ما دوّنه بعض المبشرين والرحالة وهي مادة لم تصل بعد إلى مرحلة العلمية ولم تخرج عن الكتابات التخمينية وكانت جميعها تصب في نحت صورة نمطية عن الإنسان " البدائي" وإخراجه في مظهر المتوحش ووضع

والاثنولوجيا مرتبطتان إذ أن كل واحدة منها تكمل الأخرى. انظر: **(فهيم، حسين: 1986: 14- 15)**. لمزيد من القراءة والاطلاع انظر: الفصل الأول بعنوان: **(نياسة، ناسوت، إناسة)** من كتاب **(لومبار، جاك. 1997: 9- 28)**.

المجتمع " البدائي" في طرف نقيض مقابل المجتمع المتمدن الذي يمثله بلا أدنى شك الإنسان الأبيض صاحب الدراسة وجامع المعلومات المغلوطة والمبالغ فيها ومجتمعه الأوروبي. وقد كانت البداية الممنهجة لهذه المرحلة بالرحلات العلمية التي اجتاحت إفريقيا بدءاً من سنة 1850. ولعل أشهر هؤلاء الرحالة وأعظمهم على مر التاريخ الرحالة هنري مورتون ستانلي الذي جاب القارة السمراء شرقاً وغرباً ويعتبر من بين الأوائل الذين رسموا صورة الرجل الأبيض وربطها بالإنسان المتمدن خدمةً لأطماع ملك بلجيكا الاستعمارية آنذاك ليوبولد الثاني. وفي هذا الصدد يقول جيرار لكلرك: " اعترف ستانلي بأنه قد تم (شراؤه) من قبل ليوبولد الثاني ملك بلجيكا، ليعمل على تجزئة إفريقيا كما أوحى بذلك في مؤتمر بروكسل 1876 وليكون على رأس البعثات العلمية العاملة في الكونغو- الأعلى" (لكلرك، 1990: 27-28).

لم يعمل هؤلاء الرحالة وغيرهم من المبشرين والإداريين بإمرة أنظمة الحكم الأوروبية إلا أنهم اعتبروا أنفسهم ممثلين للحضارة وحملوا معهم نظرة استعلائية على المجتمعات محل البحث، مما أدى إلى ظهور دراسات عنصرية محكومة بالمصلحة بعيدة كل البعد عن المنهجية العلمية لا تخدم إلا النظم الاستعمارية وإن كان بطريقة غير مباشرة وغير ممنهجة. وفي هذا السياق يخبرنا عالم الانثروبولوجيا الوظيفية مالينوفسكي (1884- 1942): " أن الطريقة التي يتكلم به الناس البيض الذين أمدّوني بالمعلومات عن السكان الأصليين وطريقة إعطاء آرائهم الخاصة تنم عن ذهن غير مجرب وغير معتاد على صياغة الأفكار بمنطق ودقة وقد كانت آرائهم في الغالب مثقلة بالأخطاء والأحكام المسبقة وهذا ما لا يمكن تفاديه بالنسبة للناس العاديين الذين دخلوا الحياة العملية سواء أكانوا إداريين أم مبشرين أم تجار"، وبالرغم من هذه النقائص تعتبر مرحلة الانثروبولوجيين الهواة مرحلة تمهيدية لظهور الانثروبولوجيا الاجتماعية على أسس أكاديمية وكعلم معترف به لتفتح لنا المجال للحديث عن تنظيرات ممنهجة مهدت الطريق للقوى الإمبريالية الغربية وأعطتها الحجة والذريعة لنحت مسيرة وردية في السطو على مقدرات الشعوب وتدمير الثقافات المختلفة عن الرؤية المركزية للأثنية الغربية.

2- الانثروبولوجيا التطورية: نشأت هذه الانثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر، حيث حاول الانثروبوجيون (أمثال: لوريس هنري مرغان 1818- 1881 وإدوار برنت تايلور 1832- 1917) من خلالها فهم كيفية نشأة وتطور المجتمعات وثقافتها، فحسب التطورين يمثل تاريخ الإنسانية وتاريخ الثقافة بما يضم من عادات وتقاليد وتنظيمات خطاً صاعداً كما أن البشرية تمر بمراحل تطورها التاريخي فتتدرج من الأشكال البسيطة إلى الأشكال المعقدة إلى الأكثر تعقيداً، وهذه الصيرورة ملازمة لكل المجتمعات والثقافات ناتجة في النهاية عن وحدة نفسية مشتركة بين البشر (بن محمد، 2014- 2015: 38).

وترى المدرسة التطورية أنه لا يمكن فهم العقل الإنساني إلا بربطه بالعقل التاريخي. إن فهم الممارسة الإنسانية ممكن فقط من خلال التاريخ باعتباره تاريخ بشر متجانسين تحتويهم دائرة عامة. فكل النظريات التي قدمت في هذا السياق يتم فيها التركيز على وحدة الجنس البشري. أما التمايز فهو وليد ظرف تاريخي محدد، فالمجتمعات قد اعتبرت على الدوام وجود تواصل متجانس مؤلف من طبقات تطورية وأقسام موازية. كما رأت هذه المدرسة التطورية أن التقدم ثمرة التكامل في الأدوات المادية وثمرة التعقيد في العلاقات خلال مراحل تطورية ومعقدة، فالتقدم يتمظهر من خلال الانتقال من المرحلة الحيوانية إلى البدائية ومن هذه إلى البربرية، ومنها إلى التمدن (لكلرك، 1990: 27- 28).

جعلت المدرسة التطورية في القرن التاسع عشر همّها المعرفة الكاملة للممارسات التي يمكن فهمها وللسلوك الإيماني ذو الطابع الخرافي الذي يمكن معاينته في المجتمعات البدائية انطلاقاً من معناها الداخلي أول الأمر وبمقارنتها

بمجمل درجات التقدم. بهدف تقديم علم يتعلق بالمحتوى الذهني لتلك الممارسات والمتعقدات يؤدي إلى فهم تركيبة الثقافات غير الغربية (لكلرك، 1990: 29- 30).

باختصار شديد ترى هذه المدرسة في المجتمعات الإنسانية مراحل على طريق تطور أحادي الخط كما لو أن الإنسانية بكاملها قد توافقت على غاية واحدة: خلق المجتمع الغربي متأثرين بشوفينية غربية (أوجيه، كولاين، 2008: 93). وهذا يعني النظر إلى المجتمعات البدائية على أنها مخلفات حية أو بقايا خلفتها مراحل سابقة وتعتبر الحضارة الغربية بمثابة التعبير المتقدم في تطور المجتمعات البشرية.

تبنى ساسة العالم الغربي (وبالأخص في بريطانيا وفرنسا وباقي الدول الأخرى) هذه الفلسفة اللا إنسانية لتنبثق فكرة الاستعمار والسيطرة على العالم ونهب ثرواته من منطلق أن هناك حضارات وثقافات تتسم بالتخلف والجمود ويجب نقلها إلى حالة التمدن من خلالها استعمارها، بمعنى آخر "أن المجتمعات غير الأوروبية التي حافظت على عادات وتقاليد، ليست سوى مخلفات في الأساس، فإن تلك المجتمعات الناقصة لم يعد مقبولاً الآن، أن تعتبر قطعة من التاريخ الإنساني" (لكلرك، 1990: 35- 36)، ولكن في حقيقة الأمر لم تكن تلك السياسية سوى خطة استعمارية هدفها تثبيت وتجذير الاستعمار بهدف نهب الثروات واستغلال الشعوب وإذلالها وجعلها أسواقاً لتصريف بضائع الدول الاستعمارية.

وفي النهاية يمكننا القول إن الانثروبولوجيا الكلاسيكية قد أقامت علاقة مزدوجة معه، فالواقع الاستعماري يقدم لها حقلاً تبني وتجرّب فيه مفاهيمها الخاصة. وباعتبارها علماً اجتماعياً، فهي تحاول أن توضح للجاهل هذه الحقيقة بالذات (لكلرك، 1990: 117).

3- الانثروبولوجيا البنائية- الوظيفية: ترافق نشوء هذا الاتجاه مع ظهور اتجاه الانتشار الثقافي، كرد فعل عنيف على النظرية التطورية، وقد تميز الاتجاه البنائي، بأنه ليس تطورياً وليس تاريخياً، حيث ركز على دراسة الثقافات الإنسانية على حدة، في واقعها (المكاني والزماني). ويعود الفضل في تبلور الاتجاه في الدراسات الانثروبولوجية إلى أفكار العالِمين البريطانيين مالينوفسكي ورادكليف بروان المتأثرين الأفكار التي قدمها اميل دوركايم (1858- 1917) الذي ركز اهتمامه على الطريقة التي تعمل بها المجتمعات الإنسانية ووظائف نظمها الاجتماعية، وليس على تاريخ تطور هذه المجتمعات والسمات العامة لثقافاتها (الشماس، 2004: 124).

اعتمد هذا الاتجاه على الدراسات الميدانية لوصف الثقافات بوضعها الراهن. وقد وجد هذا الاتجاه قبولاً واسعاً لدى المهتمين بدراسة الثقافات الإنسانية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية النصف الأول من القرن العشرين، ولا سيما عند الانثروبولوجيين الأوروبيين، الذين انتشروا في المستعمرات لإجراء دراسات ميدانية، وجمع المواد الأولية اللازمة لوصف الثقافات في هذه المجتمعات، وتحليلها في إطارها الواقعي وكما هي في وضعها الراهن (الشماس، 2004: 82).

والدليل على ذلك أن هذا الاتجاه تبنى مبدأ نسبية الثقافة الإنسانية، مما أدى إفراغ مقولة العنصرية التي نادت بها المدرسة التطورية وحاول أن يثبت أن أسلوب المجتمعات البدائية له مقوماته العقلانية وتطور ونمو تلك المجتمعات يحتاج إلى تطور تدريجي بطيء الأمر الذي يدعو إلى بقاء الأنظمة السياسية في تلك المجتمعات واستغلال مواردها دون عناء عن طريق الإدارة غير المباشرة مع المحافظة على التقاليد الراهنة لتلك المجتمعات.

مما دعا إلى إعادة التفكير بالاستعمار عام 1950، وما يتوجب على السياسة الجديدة أن تمارسه من تأثير على العلوم الإنسانية. كما حددت توجّه الانثروبولوجيا من جديد حيث أولتها السياسة الجديدة أهمية بالغة لكي تؤدي هذه المعارف دوراً أكثر إيجابية، ولتساهم في تطوير المؤسسات الإدارية والسياسية وبالأخص الانثروبولوجيا، التي يجب عليها أن تغطي مجالاً أكثر اتساعاً. وترى السلطة الاستعمارية أن الإحاطة بهذه المعارف الانثروبولوجية، أو

إدراك كيفية تنظيم المجتمع أمر لا يكفي، بل يجب التنبؤ بوضوح بما سيقع في هذه المجتمعات الإفريقية من جراء تأثير القوى الحديثة، كما يجب تحديد نمط المجتمع المرغوب فيه مستقبلياً، سواء من جانب الناس الذين يعنيهم الأمر، كما يجب دراسة التغيرات الجارية في المجتمعات الإفريقية دراسة عميقة من كل النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية (لكلرك، 1990: 112)، بذلك طُلِبَ من علماء الانثروبولوجيا تعديل حقول أبحاثهم بما يتناسب مع السياسة الاستعمارية الجديدة فما كان من الانثروبولوجيا إلا الاستجابة السريعة والفعالة لتنفيذ كل ما أوكل إليها من مهام استخباراتية مضموناً وبدافع العلم والمعرفة العلمية ظاهرياً. بذلك اعتبر علماء الانثروبولوجيا الاستعمار نوعاً من الاحتكاك الثقافي بين ثقافات مختلفة. أما الآن فلا أحد يتكلم عن تغير ثقافي بل عن تغير اجتماعي. والاستعمار ليس إلا مظهراً من مظاهر التغير الاجتماعي (لكلرك، 1990: 124- 126).

كما أمر الاستعمار علماء الانثروبولوجيا الترويج لمفهوم الإدارة غير المباشرة بهدف السيطرة والمحافظة على المؤسسات البدائية والتقليدية. حيث إن فكرة الإدارة غير المباشرة، كما تصورها واضعها، كانت وسيلة يؤدي بالتدريج إلى تحديث المجتمعات البدائية دون حدوث تفكك مكلف. ولكن مع تطور الوظيفية لم تعد مجرد سياسة إدارية بسيطة لقد أصبحت مفهوماً حقيقياً له شموليته، يشمل المجتمعات غير الغربية الواقعة تحت سيطرة الاستعمار. بذلك حافظت سياسة الإدارة غير المباشرة على البنى التقليدية والقيادات، إلا أن مهمتها داخل النظام الاستعماري تختلف كلياً عنها في وظيفتها القبلية لعدم الصدام المباشر مع القوى الوطنية في البلاد المستعمَرة (لكلرك، 1990: 129- 130).

وفي هذا السياق يقول مالينوفسكي: "إن الفارق الحقيقي بين الإدارة المباشرة والإدارة غير المباشرة يتمثل في افتراض الأولى امتلاكها القدرة على خلق نظام جديد وبضربة واحدة وعلى تحويل الأفارقة إلى أوروبيين مزيفين أو متمدنين مزيفين في سنوات قليلة. أما الإدارة غير المباشرة فهي على يقين من استحالة تحقيق تحول سحري من هذا النوع... ومن الأفضل تحقيقه بتغير بطيء متدرج نابع من الداخل... إن المراقبة الثقافية غير المباشرة هي الطريقة الوحيدة التي تساعد على تطوير الحياة الاقتصادية وعلى رفع مستوى الأخلاق ومستوى التعليم في الإدارات الخاصة بالسكان الأصليين وعلى تطوير فن إفريقيا وثقافتها وديانتها حقاً" (لكلرك، 1990: 112). وبالتالي تحولت الوظيفية إلى نظرية استعمارية أخرى بمفاهيم أخرى تختلف عن سابقتها وهي أن المستعمر يقوم باختيار القائد من ذات الشعوب المستعمَرة بغرض تنفيذ سياسات المستعمر وكالة عنه. وقد وضح هذه الفكرة جيرار لكلرك بقوله: "إن الاستعمار خلق سلطة المتوسطة والمتزنة بفعل جملة موازين ثقافية (لم تجعل منها مستبداً دائماً) سلطة مستقلة عن مواضعها، همّها الحفاظ على علاقات طيّبة مع المستعمرين. وإذا صادف أن فقد إداري التفاهم التقليدي، سرعان ما تمدّه السلطة الاستعمارية بالعون الفعال. إن القيادات الإدارية ليست سوى صنيع القوة الاستعمارية ولا استمرارية دون هذه القوة" (لكلرك، 1990: 131)، ويقول أحد الأنثروبولوجيين: " لقد أدرك البريطانيون بما لديهم من حس مميز التغيرات المفاجئة فأوجدوا لذلك الإدارة غير المباشرة لتكون أداة بيد القادة المحليين، وبدل أن يصرفوا قوتهم في الصراع مع القوى التقليدية القوية الجذور، آثروا استعمالها. وبذلك يمكنهم تهنئة انثروبولوجييهم الأذكياء لقد استخدم لوغارد اكتشافاً اجتماعياً انثروبولوجياً " (لكلرك، 1990: 134).

المبحث الثاني: مفهوم الاستعمار وأشكاله:

تعتبر ظاهرة الاستعمار ظاهرة قديمة قِدم البشر والدول، ولكنها في كل عصر تأخذ طابعاً مختلفاً معيناً، أو يمكن تعيينه، وإن بقى الجوهر واحداً، "وليست إيديولوجية الاستعمار أكثر من تبشير يدّعي الأخلاق والعلم" (لكلرك، 1990: 35). وفي مفهومه الحديث ارتبط الاستعمار بالحضارة الأوروبية الغربية، حيث استطاعت منجزات العلم

التجريبي أن ينقلها إلى ثورة صناعية، شكل الاستعمار محور هذه الثورة طمعاً بمصادر الطاقة والخامات والمواد الأولية الموجود في العالم الشرقي التي لم تكن تمتلكها القارة الأوروبية إلا بنسب قليلة لا تغطي كل احتياجاتها مما دفعها إلى الزحف إلى مناطق متعددة من العالم لاحتلالها واستغلال مواردها الطبيعية بهدف تحقيق مصالحها على حساب الآخرين (الجندي، ب. ت: 3).

ولا يعرف تاريخ العالم في سجله الطويل أسوأ من مدنية الغرب في معاملة الآخرين، وتجاهل مصالحهم، ومصادرة حقوقهم. بل إنه لا يعرف أسوأ من هذه المدنية في إراقة الدماء بغزارة، بل إن هذه المدنية تتميز ببراعتها الفائقة في فرض إثمها على أنه شرف، وإبراز شهواتها وكأنها قوانين نزيهة. فالمستعمر يملأ الدنيا ادعاء بأنه رسول الحضارة والارتقاء والسلام (الغزالي، 2005: 68). فالاستعمار جاء من رحم الحضارة الغربية ولن تفرّط الأم في ولدها ما عاشت (محيي الدين، 2018: 7).

يعني مفهوم الاستعمار لغوياً التعمير والأعمار، وكلمة استعمار تفترض وجود فراغ أو تأخر في منطقة أو بقعة ما من العالم، فيجد المستعمر من هذه الحجج ذرائع للقدوم إلى هذه المواقع الجغرافية واحتلالها بدعوى (أعمارها) وبحجة تحويل التأخر التي يقبع فيها أهل هذه المنطقة أو تلك إلى وضع أفضل من خلال مشاريع البناء والأعمار التحديث. " ولكن المرء ليعجب أيما عجب للاختلاف الشاسع بين مفهوم لفظ الاستعمار، وبين مدلوله المألوف: فلفظ الاستعمار من أصل اشتقاقها كلمة عمر الخراب، فهو عامر، أي معمور. ولكن الاستعمار كما عرفناه وعرفه الناس جميعاً، إذا ما تسلل إلى بلد ما، فقد حل به الخراب، ونزل به الدمار" (العقاد، 2019: 52). على الرغم من أن دعوى الاستعمار قائمة على "رسالة الرجل الأبيض" أو الأمانة التي اضطلعت بها الحضارة الأوروبية لإصلاح أمم العالم (الجندي، ب.ت: 3).

ويدل هذا المفهوم في معناه السياسي على التخريب والدمار والاستنزاف واستعباد الشعوب من قبل المستعمِرين، ذلك أن واقع الاستعمار يتميز بأنماط معينة منها: الاستعباد، السيطرة، الاستغلال، وإذا كان المستعمرون يعتقدون بأنهم يقومون بالأعمار والبناء من أجل مصلحة البلاد. حيث يأخذ مفهوم الاستعمار مدلولاً إيجابياً، فإن واقع الحال هو ليس كذلك. فالشعوب التي تعرضت للاستعمار قد عانت منه الكثير وهي تعتبره ذا مدلول سلبي لأنه أينما حل الاستعمار كان الاستغلال، والاستعباد، والتمييز العنصري، والتبعية بكافة أشكالها.

ويشير مفهوم الاستعمار بمعنى "Colonialism" إلى الاستعمار الاستيطاني، وهو مستمد من كلمة "Colony" المشتقة من اللاتينية "Colonia" ذات المعاني العديدة وفي مقدمتها "المزرعة، الحقل" إلخ. والمفردة الأخيرة مشتقة من المفردة اللاتينية "Colonus"، التي تعني: مزارع، فلاح، حارث، في إشارة إلى أن أصل الاستعمار هو السيطرة على الأرض أو مصادرتها، ومن ثم زرعها وفلاحتها، أي إعمارها. ومن الجدير بالذكر أن بريطانيا كانت تطلق على مستعمراتها مصطلح "Plantation"، أي مزرعة. بالمقابل يضمن هذا النوع من الاستعمار (الاستيطاني) حركة انتقال المواطنين من دولتهم الأصلية إلى إقليم ما وراء البحار- الأجنبي عنهم- والاستيطان به استيطاناً دائماً (منى، 2012).

تعتبر القوة بمفهومها السياسي المحرك الرئيسي للعلاقات السياسية الدولية (مجاهد، 1975: 9)، ولأن الدول بصفة عامة تسعى دائماً إلى زيادة قوتها وتحسين وضعها الدولي بهدف مواجهة غيرها من الدول. فقد تنامت ظاهرة الاستعمار بشكل واضح وجلّي في قاموس العلاقات الدولية على مر العصور، بسبب المحاولات المتكررة للدول القوية في بسط سيطرتها على أراضٍ أجنبية عنها من أجل زيادة قدراتها وإمكاناتها وبالأخص الاقتصادية، ويبدو هذا الوضع طبيعياً في ظل مجتمع دولي يتميز بعدم وجود قوة مركزية تنظم وتضبط سلوك تلك الدول لتمنعها من الاعتداء على بعضها البعض، أو التوسع على حساب الآخرين من الشعوب الضعيفة من أجل استغلال ثرواتها وموادها الطبيعية أبشع الاستغلال، وتُعرف هذه الظاهرة الشائعة في العلاقات الدولية بمفهوم (الاستعمار). لذا يحظى هذا المفهوم

بأهمية خاصة في العلاقات الدولية، لأن يلقي الضوء على كيفية ممارسة القوة في أبشع صورها على الشعوب المستعمَرة ويبدو هذا الاهتمام واضحاً في الدول النامية التي وقعت غالبيتها العظمى فريسة الاستعمار، مما كان له تأثيره الواضح على العلاقات الدولية (شايب، 2007: 2).

بذلك يعتبر الاستعمار ظاهرة سياسية واقتصادية وعسكرية، تتجسد في قدوم موجات من سكان البلدان المستعمِرة إلى المستعمرات قبل الاحتلال العسكري أو بعده بقصد استيطانها والإقامة فيها بشكل دائم أو الهيمنة على الحياة الاقتصادية والثقافية واستغلال ثروات البلاد. وبشكل عام ترافق هذه الظاهرة اللا إنسانية حملات عسكرية عنيفة من أجل حماية المستوطنين والمرتبطين بالدولة الإمبريالية (الأم)، بهدف تأمين استمرارية النهب الاستعماري لهذه البلاد وربطها نهائياً بعجلة الإمبريالية العالمية. أما الاستعمار المباشر فهو الذي يكتفي باستغلال البلاد وحكمها بواسطة جيوشه وعملائه، كما حدث لمعظم البلدان العربية في فترة وقوعها تحت الاستعمار الغربي (الأوروبي). إلا أننا نجد في النهاية أن كلا الاستعمارين هو نهب وسلب منظم لثروات البلاد المستعمَرة، فضلاً عن تحطيم كرامة شعوب هذه البلاد وتدمير تراثها الحضاري والثقافي، وفرض الثقافة الغربية الاستعمارية على أنها الثقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد المتخلفة إلى حضارة العصر (كيالي، 1985: 172). أما عن فترة تنامي هذه الظاهرة بشكل واضح وصريح، فقد أثبت الدراسات تاريخياً أن الظاهرة الاستعمارية قد بدأت تطفو على السطح كظاهرة عالمية عند بداية ظهور الثورة الصناعية في أوروبا، حيث تعتبر تلك الظاهرة نتيجة منطقية لتطور النظام الرأسمالي وضرورة استمراره، بالأخص في أواخر القرن التاسع عشر (Borras, 1984: 59) ، فلم تستهدف هذه الظاهرة "الاستغلال المادي فحسب، بل ركزت، على أن تكون أيضاً إجهازاً على كل ما له صلة بهوية المجتمعات المستعمرة ومقومات شخصيتها التاريخية" (مالكي، 1994: 332- 333).

وهكذا أصبح المستعمرون الأوروبيون يسعون إلى خلق الظروف وتقديم الذرائع للانتقال إلى عالم جديد خالٍ من أي نشاط من أجل السيطرة عليه واستغلاله أبشع الاستغلال تبعاً لما يحقق مصالحهم. بمعنى آخر نجد أن الظاهرة الاستعمارية نمت، عندما انطلقت القوى العسكرية من أوروبا في الشمال إلى مجتمعات عالم الثالث في الجنوب، وذلك للحصول على المواد الخام، وتصريف السلع المنتجة في أسواق الجنوب لتضمن استمرار دوران عجلة الصناعة. غير أن نمط الاستعمار لم يكن واحداً بل أنماط عديدة يمكن بلورتها في نمطين أساسيين: الأول: يمكن توصيفه بالنمط العملي المباشر كالاستعمار الانكليزي، حيث تسعى القوى الاستعمارية في إطاره إلى السيطرة على المجتمع المستعمَر لتحقيق أهداف الاستعمار. الثاني: فيمثله الاستعمار الفرنسي الذي يستهدف فرض تبعية المجتمع المستعمَر له، وتأكيد فرنسته من الداخل ومن الجذور عن طريق تغيير لغته وثقافته وهويته، ثم تأتي بعد ذلك عملية الاستغلال سواء للموقع أو للمواد الخام، ويمكن لنا اعتبار الاستعمار الفرنسي للجزائر الشقيق مثالاً واضحاً على ذلك (ليلة، 2012: 139).

بناءً على ما سبق نجد أن حركة الاستعمار لم تتوقف إذن على البعد العسكري والاقتصادي فقط، إنما صاحبته جملة من الفعاليات التي اعتمدت على الجهد الثقافي، ومن هنا تبرز ملامح الشمولية للمشروع الاستعماري، الذي عمد نحو ترسيخ قيم ومبادئ التمركز الغربي، بإزاء تهميش وإقصاء الآخر الذي تم توصيفه بالهمجية والعري وسيادة روح الخرافة والبدائية واللا تحضر واللا تدين. ومن هذا المدخل كان المسعى نحو توظيف مشروع السيطرة على الأرض والثروات والسعي إلى مصادرة حقوق الآخر، انطلاقاً من العمل على إلغاء وجوده، تمهيداً لتهجير المجتمعات أو السعي إلى إبادتها جماعياً، كما حدث لقبائل الهنود الحمر، أو استعبادها كما حصل للملايين من سكان إفريقيا، ونقلهم بوصفهم عمالة رخيصة للعمل في حقول العالم الجديد الزراعية (الربيعي، ب. ت: 111).

مما يدلنا بالمقابل على "أن العنصرية بأنماطها المتعددة قد تطورت مع ظهور وتوسع الاستعمار الأوروبي القائم على استعمار العالم الآخر، غير الأوروبي، وقد تم استغلال العنصرية وفلسفتها الأساسية، لإضفاء الشرعية على النظام الاستعماري، ولتقديم الدعم الإيديولوجي لعملية الاستعمار من خلال (واجب الرجل الأبيض في تحضير الأمم المتأخرة غير القادرة على مساعدة نفسها)" (شيحة، 2003: 290)، هذا على الصعيد الواقعي (المادي). أما على الصعيد الفكري فقد تجسّدت أعلى درجات العنصرية الفكرية عندما سعى الاستعمار إلى جعل الأفارقة " موضوعات للتاريخ، فإن الأفارقة المستعمَرين مثلهم مثل الأفارقة المستبعدين فيما قبل الاستعمار، فقد تم دفعهم إلى أوضاع تناسب المصالح الأوروبية الاستعمارية التي تدمر القارة وشعوبها" (رودني، 1988: 301). وتعمق نظر الآخر ذات الطابع العنصري إلى تلك الشعوب على أنها تحتل المراتب الدنيا في سلم التطور الحضاري الذي يعتبر حكراً على الشعوب الأوروبية الغربية.

أما عن آلية التفكير التي يتبعها الاستعمار عندما يحاول احتلال بلد ما، فترى معظم الدراسات التي تناولت هذه الظاهرة بالدراسة والتحليل، أن الاستعمار في هذا الجانب يسعى جاهداً إلى مراعاة عاملين أساسيين الأول الجانب الديني (الروحي) للمجتمع بغرض مراعاته وأخذه بعين عند رسم أي سياسة للتعامل مع أفراد المجتمع المستعمَر. أما الثاني فإنه ينحصر بعالم الأفكار والصراع فيما بينها، حيث يسعى الاستعمار في هذا الجانب إلى التشكيك في الأفكار التي يعتنقها أفراد مجتمع ما من خلال تشويه منطوقها اللغوي أو تشويه الشعار الذي يؤدي إلى معناها بالطريق الرمزي. ومثال ذلك أن أول عمل قام به الاستعمار الفرنسي عند احتلاله للجزائر الشقيق هو محاولته إلى طمس معالم الشخصية الجزائرية الوطنية لجعل أفراد المجتمع يشعرون بالدونية الثقافية والفكرية في سبيل تغيير الكثير من المفاهيم والأفكار والمعتقدات، التي يعتنقونها مما يؤدي إلى التشكيك فيها، مما يسهل عملية الترويج لفكر وثقافة الاستعمار للسيطرة على المجتمع الجزائري من كافة النواحي (لخضر، 2005: 38- 39).

وفي هذا السياق نستحضر أفكار المفكر والفيلسوف والمناضل الشاب فرانز فانون● عن الاستعمار، الذي يعتبر من أهم المفكرين الذين حللوا وفسروا الظاهرة الاستعمار وممارساتها وبيّنَ كيف يرتبط مفهوم العنصرية بشكل كبير بتلك الممارسات بغية توظيف السيطرة الاستعمارية وإدامة استغلال المستعمرات، فقد سعى المستعمرون إلى تدمير التراث الثقافي للسكان الأصليين بدعوى التفوق العرقي للحضارة الأوروبية المنتصرة، وإلى تشريب الشعوب المستعمَرة فكرة أنهم من جنس أدنى، وبالتالي دفعهم إلى الإحساس بالدونية، مما يسهل تشكيل الأهالي وفق التراتبية العنصرية وإلحاقهم بالآلة الأوروبية (Kebede,2001: 540). كما تحاول البنية الإيديولوجية الاستعمارية، بكل ما

● ولد " فرانز فانون " في 23 تموز/ يوليو1925 بجزيرة المارتينيك في جزر الأنتيل الصغرى، الواقعة في بحر الكاريبي بأمريكا الوسطى، وهي جزر تابعة للسيادة الفرنسية. نشأ فانون في أسرة زنجية مكونة من ثمانية أفراد، وكان الخامس بين إخوته. سكن فرانز في مدينة " **فور دي فرانس** " بالمارتينيك، وهي نفس المدينة التي ولد وعاش فيها الشاعر والمفكر العالمي الكبير " **إيميه سيزير** " مؤسس " **حركة الزنوجة العالمية** ". درس فرانز في مدرسة سيزير، الذي علمه كيف يفتخر بزنوجته، وكيف يطالب بحقوقه ويدافع عنها كفرد، من خلال الدفاع عن حقوق الجماعة، أي حقوق الزنوج في المارتينيك، وعلى رأسها مطلب المساواة مع البيض الفرنسيين، الذين احتكروا كل شيء وسيطروا على مختلف مناحي الحياة في الجزيرة الصغيرة لصالحهم. استطاع خمسة أبناء من أسرة فانون المثقفة، الالتحاق بالجامعة ومواصلة الدراسات العليا في الجامعات الفرنسية، وواصل فرانز فانون تعليمه في الجامعة كإخوته، واستطاع أن يحقق حلمه بأن يصبح طبيباً نفسياً ممارساً للمهنة، كما درس الفلسفة وبرع في تحليل العديد من الظواهر الإنسانية التي قابلته، باعتباره طبيباً مختصاً في تفسير السلوك النفسي الإنساني وعلاجه من جهة، وباعتباره أيضاً مناضلاً تحررياً ضد قوى الاستعمار القديم من جهة أخرى.

أوتيت من قوة إلى ممارسة الاستئصال الكامل للثقافة المحلية وللتاريخ والمواطنة واللغة، بغية استبدالها بالأنظمة الثقافية الأوروبية (Parris,2011:7).

وقد أورد فانون معظم تصوراته حول "الظاهرة الاستعمارية وممارساتها" في كتابه "معذبو الأرض" Wretched of the Earth عام 1961، التي تنحصر بما يلي:

1- يرى فانون أن " الظاهرة الاستعمارية تفرض على العالم انقساماً ثنائياً " (فانون، 2007: 12)، بمعنى أن الاستعمار عندما يحل ببلد ما يقسمه إلي فضاءين: "الفضاء الأوروبي" الذي بيده الحول والطول ومستودع القيم الباقية، وفضاء "الأهالي" المغلوب على أمره، المستضعف، وخرابة القيم الآفلة (إبراهيم، ب.ت: 15). ويتجلى هذا الانقسام بشكل واضح على المستوى الجغرافي بين مدن الأوروبيين التي تتسم بأنها مدن مترفة ساطعة الأنوار تتمتع بكل سمات التطور والتحضر مع عدم إمكانية الاقتراب منها من قبل السكان الأصليين، ومدن السكان الأصليين التي تتصف بأنها مدن تمثل أعلى صفات التخلف بكل مقاييسه، فهي مدن مكدسة بالأكواخ والبشر، جائعة راكدة. تفصل بينها وبين المدن الراقية ثكنات ومراكز الشرطة. فهما مجتمعان منفصلان تماماً وعالمان لا يلتقيان. وفي هذا الصدد يقول فانون: " إن المنطقة التي يسكنها المستعمِرون لا تكمل المنطقة التي يسكنها المستعمَرون. إن هاتين المنطقتين تتعارضان، ولا في سبيل إلى وحدة أعلى " (فانون، 2007: 4- 5). أما عن طبيعة العلاقة بينهما فهي علاقة تسودها النظرة الدونية اللا إنسانية لأنها علاقة حدية قائمة أساساً على عدم التكافؤ والاعتراف بإنسانية الإنسان في مدن السكان الأصليين لهذا لا يوجد اتصال بينهما وإن وجود أحدهما يعني بالضرورة زوال الآخر.

2- يؤمن فانون أن انقسام هذا العالم هو مسؤولية الاستعمار أساساً، فعلى المستوى الفكري ولّد هذا الانقسام انقساماً ثنائياً في ذهن المستعمَر، حيث إن وجود الاستعمار يعني عنده موت المجتمع الأصلي، وتدمير وفناء أبنيته الثقافية وتجمد مظاهر الحياة (cultural mummification) (Borras, 1984, 62)، وأن الحياة لا يمكن أن تعود إلا من خلال المستعمِر، بذلك يولّد هذا الانقسام عالمين متعارضين، يخضعان لمبدأ النفي المتبادل، "ولا سبيل فيه إلى المصالحة بل إن أحد الطرفين زائد يجب أن يزول" (فانون، 2007: 5). وفي هذه الحالة يجب على الشعوب المستعمَرة أن تزول لأنها هي التي تمثل الطرف الأضعف.

3- يرى فانون أن النظام الاستعماري نظام يستمد شرعيته من القوة التي بطبيعتها تستدعي العنف وتتطلبه، " لأن الاستعمار لا يفهم إلا لغة القوة، ويعزم أمره الآن على أن يعبّر عن نفسه بلغة القوة" (فانون، 2007: 51). ويصف فانون العنف الاستعماري بأنه عنف منظم ومبرمج، لأنه يشكل جزء لا يتجزأ من بنية وطبيعة النظام الاستعماري ذاته. ويعتقد فانون أن الاستعمار إذا حاول في بعض مراحل استعماره للشعوب والبلاد القيام ببعض الإصلاحات، فإن هذا يكون بهدف دعم استمرار وجوده وتأخيراً لنمو الوعي الوطني إلا أنه لا يستطيع المضي بهذا النهج دوماً، لأن سيضطر إلى أن يقدم للمستعمرات ما لا يستطيع تقديمه في أراضيه الأم، بهذه الحالة لا يجد الاستعمار سبيلاً لاستمرار وجوده سوى انتهاج أسلوب العنف والقهر والإخضاع.

4- يذهب فانون أن ممارسة الاستعمار للقهر والعنف يخلق ويفاقم المرض النفسي، لذلك فالتخلص من الاستعمار ضرورة لتوفير الشرط الموضوعي لإمكانية شفاء المرض. حيث يؤمن فانون "بأن توفير السلامة الاجتماعية شرط أساسي لتوفير السلامة العقلية" (كوت، 1971: 61)، بهذا يكون "مركب النقص المفروض على الشعوب المستعمَرة بالقوة لا يمكن إزالته إلا بمكافحته ومحاربته ورد الصاع صاعين لأولئك الذين فرضوه، مما دعا فانون إلى تعليق أهمية متزايدة على الآفاق العنيفة لإزالة الاستعمار" (كوت، 1971: 29).

وهكذا نجد أن المستعمر الغربي مارس – ولا يزال يمارس- ازدواجية بين ما يدعيه من قيم وأخلاق وفلسفات، وبين سلوكياته وأفعاله في حقبة الاستعمار أو ما بعدها، فقد باتت سياسته "الكيل بمكيالين" معروفة لنا من خلال الشعارات التي يتبناها، وبالأخص عند حضور شخصية المستعمِر الغربي، الذي يدعي الإنسانية لكي يمارس الاستعلاء والطغيان والإلغاء مقابل استنكاره لأعمال العنف التي يقوم بها الطرف المقاوم، ليفاجئنا بأقسى وأبشع أشكال العنف، فما يستبعده المستعمِر يستحضره ويعقله بأسلوب آخر، رغم ادعائه نشر الحرية والمساواة فلا يقدر إلا على تقديم التفاضل والتمايز والاستبداد. هذا هو شأن سلوك المنافق الذي يدعو إلى الحرية، وفي الوقت نفسه يمارس فيه على البشر وصايته النخبوية لكي يستبد بهم بوصفه أولى منهم بأنفسهم (جمعة، 2018).

المبحث الثالث- العلاقة بين العقلانية الأداتية والاستعمار:

ظهر مفهوم العقل الأداتي في العديد من مؤلفات الفلاسفة والمفكرين منهم: هوركهايمر وأدورنو في كتابهما "جدل التنوير" عام 1972، وكتاب هوركهايمر "أفول العقل" عام 1947، وكتاب هربرت ماركيوز "الإنسان ذو البعد الواحد" عام 1960. يتصف العقل الأداتي لدى هؤلاء بأنه منطق في التفكير وأسلوب في رؤية العالم، أي أن العالم الاجتماعي أصبح له طبيعة ثانية كالطبيعة غير قابل للتغيير ومستقلاً عن أفعالنا (فياض، 2020: 352).

ويعتبر العقل الأداتي Instrumental Reason نوعاً من التفكير السائد في المجتمع الصناعي الحديث، ويتضح ذلك في أسلوب التفكير العلمي والتقني، كما تعبر عنه الفلسفة الوضعية بأشكالها المعاصرة والفلسفة البراجماتية (النفعية). ويتضمن مفهوم (الأداتية) مضمونين: فهو أسلوب لرؤية العالم، وأسلوب لرؤية المعرفة النظرية. بحيث إن رؤية العالم بوصفه أداة تعني اعتبار عناصره أدوات نستطيع بواسطتها تحقيق غاياتنا، والمثال على ذلك، أنا لا انظر إلى الشجرة لما يجلب جمالها لي من رضى، بل أراها خشباً يمكن أن يحول إلى ورق يطبع عليه كتابي الذي أقوم بتأليفه... وبإمكاننا أيضاً النظر إلى المعرفة باعتبارها أداة ووسيلة لتحقيق غاية. وربما تكون هذه الفكرة أصعب كثيراً لأنها تتخلل ثقافتنا لدرجة أن أي وجهة نظر أخرى لا ترى في المعرفة أداة يصعب تصورها (كريب، 1999: 316).

يعتبر رواد مدرسة فرانكفورت النقدية أول من دعا إلى نقد العقل ومحاولة إنقاذه من براثن الهيمنة التي فرضتها الفلسفة الوضعية والامبيريقية التي أفسدت العقل الغربي وحولته الى عقل أداتي، منطلقين من أن النظرية النقدية وضعت العقلانية على محك التساؤل والشك. وما كوارث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والقرن العشرين، من ظهور استعمار الحديث والحروب العالمية والأهلية والكوارث البيئية إلا من نتائج تلك الهيمنة اللا عقلانية على العالم (الحيدري، 2012).

يرى ماكس هوركهايمر (1895- 1973) بأن النزعة العقلانية لعصر التنوير تضمنت في الأساس تصوراً للطبيعة كموضوع للسيطرة عليها والتحكم فيها واستغلالها، وهذا التصور كان قد أدى بالضرورة إلى نظرة متماثلة للإنسان ذاته حيث أصبح الإنسان، في علاقاته الاجتماعية المتبادلة، كموضوع للسيطرة. والنتيجة التي توصل إليها هوركهايمر هي نظرة تشاؤمية تمثلت في معظم أشكال التفكير الفلسفي والاجتماعي الواسعة الانتشار في الفكر الغربي والحضارة الحديثة، التي ما زالت تدعم السيطرة الكلية على المجتمع، وأن قلة قليلة من ممثلي الفكر النقدي بقيت تناضل ضدها.

كما ذهب هوركهايمر إلى أن العقل الأداتي المهيمن في المجتمعات الرأسمالية الاستعمارية، قد فقد فيها العقل لدوره كمملكة فكرية وتم تقليصه إلى مجرد أداة لتوفير الوسائل، وأدى ذلك إلى فقدان العقل للقدرة على إدراك الحقائق في ذاتها حيث أصبح كل شيء مجرد وسيلة (Hokhiemer, 1974: 7). فقد أعطى للتنظيم الاجتماعي حقيقته ونقد هذا العقل هو نقد لعقلانية السيطرة والهيمنة ذاتها، ونقد أيضاً لما تفرزه من متغيرات تؤدي إلى تهميش

النزعة الإنسانية للفرد واغترابه عن ذاته ومجتمعه، من خلال التقنية التي تعتبر من أهم منجزاته والتي تتحول من عقلانية نافعة إلى عقلانية سياسية نفعية غرضها الاستلاب والاستعمار والسيطرة، فتقود إلى التآكل التدريجي لكل جوانب النزعة الإنسانية للمجتمع بكل تجلياتها (فياض، 2010: 15).

بناءً على ما تقدم يمكننا القول بأن العقل الأداتي بعد تبلوره، يتسم بالسمات التالية:

أ- ينظر العقل الأداتي إلى الواقع من منظور التماثل بحيث لا يهتم بالخصوصية المميزة للواقع الاجتماعي، لأنه يبحث عن السمات المتماثلة في الأشياء ويهمل السمات التي تميز ظاهرة ما عن أخرى.

ب- العقل الأداتي قادر على إدراك الأجزاء، فهو يعمل على تفتيت الواقع إلى أجزاء غير مترابطة، ويفككه دون أن يستطيع إعادة تركيبه إلا من خلال نماذج اختزالية بسيطة.

ج- ينظر العقل الأداتي إلى الإنسان باعتباره مجرد جزء يشبه الأجزاء الطبيعية (المادية) الأخرى، وهذا الجزء ليس له ما يميزه عن بقية العالم، فهو مستوعب في كليته في النظام الاجتماعي القائم وفي تقسيم العمل السائد في الطبيعة (المادة).

د- يرى العقل الأداتي الإنسان من منظور العلوم الطبيعية باعتباره شيئاً ثابتاً وكماً واضحاً ووضعاً قائماً لا يحتوي أية إمكانيات إنسانية خلاقة.

هـ- ينظر العقل الأداتي إلى الطبيعة والإنسان باعتبارهما مادة استعمالية يمكن توظيفها واستغلالها لخدمة أي هدف.

و- الهدف النهائي من الوجود كما يؤمن العقل الأداتي هو الحفاظ على بقاء الذات وهيمنتها وتفوقها، ومن هنا جاءت تسميته بالعقل الذاتي أيضاً.

ز- لتحقيق هذا الهدف، يلجأ العقل الأداتي إلى فرض المقولات الكمية على الواقع وإخضاع جميع الوقائع والظواهر (الطبيعة والإنسان) للقوانين الشكلية والقواعد القياسية والنماذج الرياضية، حتى يمكن التحكم في الواقع ويصل هذا إلى ذروته في الفلسفة الوضعية. وينتج عن هذا ما يلي:

1. أن العقل الأداتي يصبح عاجزاً تماماً عن إدراك العمليات الاجتماعية والسياسية والتاريخية في سياقها الشامل الذي يتخطى حدوده المباشرة، بل إنه يعجز تماماً عن إدراك أي غايات نهائية أو كليات متجاوزة للمعطيات الجزئية الحسية والمعطيات المادية الآنية. ولذا يمكن تسميته بالعقل الجزئي أي أنه يصبح عاجزاً تماماً عن تحقيق أي تجاوز معرفي أو أخلاقي.
2. لهذا السبب نفسه يصبح العقل الأداتي غير قادر على تجاوز الحاضر للوصول إلى الماضي أو استشراف المستقبل، أي أن العقل الأداتي يسقط تماماً في "اللا زمنية واللا تاريخية".
3. مع غياب أية مقدرة على إدراك الكل المتجاوز وأية أسس تاريخية ورؤى مستقبلية، أي مع غياب أية أرضية معرفية ثابتة، يمكن أن تستند إليها المعايير العامة، يسقط العقل الأداتي تماماً في النسبية المعرفية والأخلاقية والجمالية إذ تصبح كل الأمور متساوية، ومن ثم تظهر حالة من "اللامعيارية الكاملة"، فيمكن القول بأن النموذج الكامن والمهيمن على الإنسان الذي يصبح مع تساوي الأمور هو: (الطبيعة- المادة- السلعة- الشيء في ذاته- علاقات التبادل المجردة).
4. يصبح العقل الأداتي قادراً على شيء واحد فقط وهو قبول أمر الواقع، من خلال التكيف مع ما هو قائم من أحداث ووقائع وجزئيات بالإضافة إلى التكيف مع الظروف المنتجة (للقهر والقمع والتنميط والاغتراب) التي تؤدي جميعها بنهاية الأمر إلى تثبيت دعائم السلطة وعلاقات القوة والسيادة القائمة في مجتمع معين، مع العمل على كبح أية نزعات إبداعية تلقائية تتجاوز ما هو مألوف.

5. كما يتحول العقل رغم تحرره من الأساطير، إلى قوة عقلانية تحاول السيطرة على الطبيعة والإنسان وترشيد الحياة بشكل يؤدي إلى نفي الحرية تماماً كما يتبدى في بنى التسلط الرشيدة الحديثة، ولذلك نجد أن التقدم أدى إلى عكسه وأن التنوير أدى إلى الشمولية، فالمجتمعات الحديثة التي تسعى إلى الفردية همشت الفرد، وأنها في طريقها إلى شكل من أشكال البربرية التي تتقدم بخطى حثيثة نحو الجحيم، والبرهان على ذلك ما حدث في الحربين العالمتين الأولى والثانية وإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناكازاكي.

وهكذا يؤدي الترشيد الأداتي والسيطرة المتزايدة- لمجالات متنامية في الحياة الاجتماعية من قِبَل الأنظمة والمؤسسات الاقتصادية والسياسية والإدارية- إلى استعباد الإنسان وإلى تقليص عالم الحياة وهيمنة عالم الأداة واستبعاد كثير من جوانب حياته الثرية وإمكانياته الكامنة المتنوعة، أي أن العقل الأداتي يؤدي إلى هيمنة الواحدية الموضوعية المادية (فياض، 2020: 50- 51- 52).

يعتبر الاستعمار الأوروبي أحد أهم مفرزات عصر النهضة والثورة الصناعية وسيطرة العلوم التجريبية على الواقع الأكاديمي، حيث ارتكز في رسم خططه وسياساته لاحتلال شعوب العالم الأقل تطوراً على مبدأ العقلانية الأداتية، فأصبحت توجد كل مساراته وعلاقاته مع الآخر المختلف عن الأثنية الأوروبية. وبنفس الطريقة الأداتية التي شرحها رواد مدرسة فرانكفورت حاول الاستعمار من خلال السلطة السياسية توظيف الانثروبولوجيا كعلم أكاديمي والنتائج التي توصلت إليها لإحكام السيطرة على المجتمعات البدائية التقليدية بأسهل الطريقة وأقل التكاليف من خلال الأخذ بعين التوصيات التي تقدمها تلك الدراسات الانثروبولوجية على اختلاف مداخلها النظرية والمنهجية.

سيطرت على عقلية الاستعمار مبادئ الفلسفة النفعية المتجذرة في البنية الفكرية للعالم الغربي، مما أدى رفع شعار الغاية تبرر الوسيلة بكل معانيها الانتهازية، التي بنى عليها الغرب أفكاره ومبادئه الاستعمارية وبالأخص في تعامله مع الشعوب الأخرى، فقد شكلت هذه المقولة الذهنية السياسية خلال القرون الأخيرة جميع أنحاء العالم الغربي وتحولت مع مرور الوقت إلى عقيدة فاسدة يتم توظيفها من أجل الوصول إلى أهداف خاصة مهما كان ثمن هذا الوصول حتى لو كان على حساب الآخرين من خلال استعمارهم ونهب خيراتهم وتدميرهم وتكريس مبدأ تبعيتهم للاستعمار في كافة المجالات.

فمن الوسائل التي انتهجها الاستعمار لإحكام سيطرته على البلدان المستعمَرة تتمثل في إيهام سكان المستعمرات بأنه جاء إليهم من أجل الإعمار والإصلاح وتمكين البلاد من اللحاق بركب الدول المتقدمة. إلا أنهم في حقيقة الأمر دعاة شر مفسدون ومضللون يعملون وفق سياسة ماكرة، هي سياسة فرق تسد، ولا يقر لهم قرار إلا إذا أشاعوا الفرقة والانقسام بين أفراد المجتمع المستعمَر. بالإضافة إلى العمل في الخفاء والظلام والاعتماد على الجاسوسية والسرية في تنفيذ خططهم وتحقيق مصالحهم وغاياتهم، فالاستعمار في حقيقته ما هو إلا ضرب من ضروب القرصنة بشكله الحديث (إبراهيم، 2015: 13- 14).

كما شجع الاستعمار على تنفيذ أطماعه التوسعية " فكرة: (نحن والآخرون) التي ظهرت إلى العلن بنفس التوقيت، نحن: الأوربيون، بكل تميزنا وتفوقنا، أما الآخرون: فهم غير الأوربيين، الذين يجب أن يخضعوا لنا وأن يسلموا لنا مقاليد الهيمنة على ما يملكون، كانت هذه الاتجاهات التي خلصت إليها الدراسات الانثروبولوجية والاستشراقية نتيجة لعلاقات القوة، أو أوضاع السلطة التي أصر الغرب على الإمساك بها وممارستها على مقاليد الشرق، ويعتبر إدوارد سعيد من أهم الفكرين- الناقدين لهذه الفكرة في كتابه: "الاستشراق" 1978 (نبيل، 2019).

المبحث الرابع: العلاقة الارتباطية بين الانثروبولوجيا والاستعمار:

تباهى الغرب كثيراً بتقدمه العلمي الذي يعزيه إلى عبقرية علمائه، ولكن مسيرة العلم الحديث في حقيقة الأمر لا يمكن فصلها عن تاريخ الغرب الاستعماري، الذي كان العلم جزءاً أساسياً في تمكينه وتوطيده، مساهماً بذلك في تعميق النظرة العنصرية ضد الشعوب المستعمَرة (طرابلسي، 2018).

إن سعي الاستعمار الحديث للسيطرة على الشعوب لم يكن بالقوة العسكرية والسلاح المدمر، بل كان أيضاً بالهيمنة الثقافية والعمل على إعطاء التبريرات الوافية حول إبادة هذه الشعوب واستغلال خيراتها الطبيعية والبشرية، ولقد كرست الجهود التي توغلت إلى الخصوصيات الثقافية للوقوف على مكان القوة والضعف عن طريق الملاحظة الدقيقة والمتأنية للوصول إلى نتائج مهمة، ويقول أحد الباحثين في هذا السياق " لا استعمار جيد بدون اثنولوجيا محكمة... ولا يمكن أن يتم الاستعمار بالتجريب حين تساعد أضواء الملاحظة العلمية على إتمامه وبمعدل نجاح كبير" (منصور، 2016: 83- 84).

لقد نشأت الانثروبولوجيا كأداة فكرية لتعزيز سلطة الاستعمار، فكانت مرتبطة بشدة كبيرة بالإدارة الاستعمارية (جيه دي، 2019: 11). والدليل على ذلك أنه إذا كان الاستعمار موجوداً في كل زمن، فإن دراسة الشعوب الخاضعة للاستعمار لم تجر إلا في الاستعمار الأوروبي وهي تجري بشكل علمي (لكلرك، 1990: 37). "حيث استطاع المستعمِر أن يجد مبررات لتوظيف علماء الانثروبولوجيا لدراسة المستعمرات التي تمثلت في غياب الدراسات التاريخية حول هذه الشعوب" (العربي، 2011، 48)، مما جعل الانثروبولوجيا حليفاً حقيقياً للاستعمار الباحث عن أراضي جديدة وثروات إضافية لتلبية الحاجات الصناعية في أوروبا، فقد كان الاعتماد على تقنيات ووسائل الانثروبولوجيا واضحاً لدى الإدارة الاستعمارية من خلال الاعتماد على وصف تركيبة الشعوب المستعمَرة ونظمها الاجتماعية وثقافاتها...، كما كانت هذه العمليات تتم من قبل ضباط الجيوش الاستعمارية الذين كانوا في الواجهة، مما مكنهم من إعداد التقارير حول الخصائص التي تميز الشعوب وحول طبيعة البيئات التي تسكنها، وكل هذا من أجل التمهيد الثقافي والفكري للغزو العسكري أو للمحافظة على بقاء واستمرار النظام الاستعماري (ميمون، 2018).

ويعني ذلك أن الدراسات الانثروبولوجية لم تقتصر على دراسة وتحليل وتفسير المجتمعات البشرية بهدف المعرفة الأكاديمية وفهم الطبيعة الإنسانية بل تم توظيفها واستخدامها لخدمة غايات استعمارية دنيئة. والدليل على ذلك أن الحركة الاستعمارية الأوروبية كانت عندئذ في حاجة إلى البحث عما يدعم هيمنتها، وإلى معرفة الخطوط العامة للسياسية التي يمكن أن تحافظ على هذه الهيمنة. فظهرت العلاقة الجدلية بين المعرفة الانثروبولوجية كنظرية، وبين السياسة الاستعمارية كواقع تاريخي، فالسياسة هنا تمد المعرفة بموضوعها وبالاتجاه الذي ينبغي أن تسير فيه، والمعرفة بدورها تمد السياسة بالمعطيات التي تساعدها على تنفيذ مشروعها وعلى تبرير مشروعيتها كما تمدها بصيغة للتعبير عن أهدافها (فهمي، 1986: 132).

بذلك "وصمت الانثروبولوجيا كعلم من حيث النشأة والهدف بأنها علم استعماري بامتياز، لأنه كان مطية الاستعمار التي مكنت الدول الغربية من استعمار دول وشعوب كثيرة من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. حدث ذلك من خلال سلسلة متتابعة من الباحثين الذي ارتدوا قناع التبشير بينما هم في حقيقة الأمر مقدمة لذلك الزحف الاستعماري الغربي الذي رزح فوق كاهل تلك الشعوب لسنوات عديدة.

عمل الانثروبولوجيون من خلال مهمتهم التبشيرية المزعومة إلى جمع العديد من المعلومات حول المجتمعات المستعمرة أو التي يشكل استعمارها هدفاً مستقبلياً، ومن الطبيعي أن تستغل تلك المعلومات المجموعة إما في تثبيت الاستعمار أو تهيئة المناخ المناسب له للانقضاض على ضحية جديدة للاستعمار وبأقل الخسائر الممكنة، بالنسبة للدول الاستعمارية طبعاً" (الفوال، 1982: 177- 178). ولا يستقيم ذلك إلا بمعرفة متعمقة للغاتهم وعاداتهم

وتقاليدهم وأخلاقهم والعلوم الاجتماعية الاستعمارية ضرورية للحفاظ على هيمنتها ولضمان استمرار هذه الهيمنة (فهمي، 1986: 132).

ويعبّر الانثروبولوجي الإنكليزي إيفانز بريتشارد (1902- 1973) عن العلاقة الارتباطية بين الاستعمار والانثروبولوجيا بقوله: "إذا كانت السياسة الاستعمارية لحكومة ما، تقوم على حكم شعب من الشعوب بواسطة رؤسائه، فمن المفيد أن يعرف من هم هؤلاء الرؤساء، ما هي وظيفتهم، وسلطتهم وامتيازاتهم، وواجباتهم، فإذا سلمنا بأن حكم شعب ينبغي أن يتم وفقاً لشرائعه الخاصة وعاداته الخاصة، فيجب أولاً أن نكتشف هذه الشرائع وهذه العادات" (العربي، 2011: 49).

بالمقابل لم يشفع للانثروبولوجيا أن المعلومات التي جمعت حول شعوب ودول العالم الثالث والنامي، قد أذهلت العلماء والباحثين حيث اتضح لهم أن الدول المستعمَرة أو المستهدفة للاستعمار لها من النظم والحضارة والتقاليد ما يمكنها من الصمود ليس فقط في وجه الاستعمار المكشوف وإنما في وجه مختلف أشكاله المستترة.

وهكذا نجد أن المواقف المضادة للانثروبولوجيا بمختلف مجالاتها لها ما يبررها سياقياً: ابستمولوجياً وتاريخياً. إذا أخذنا في الحسبان الارتباط الوثيق فيما بين العلوم الاجتماعية عموماً (المساوقة لحركة الاستعمار) وبين إيديولوجيا الاستعمار، وكذلك النظرة للآخر: كمتوحش أو إنسان من درجة أقل. اعتباراً في التقسيم العلمي للسوسيولوجيا، كما دعا إليه أوغست كونت نفسه في دروسه الوضعية، بين سوسيولوجيا تدرس المجتمعات الصناعية- الوضعية، وأخرى تدرس المجتمعات غير الغربية أو ما قبل الحالة الوضعية، ألا وهي الانثروبولوجيا نفسها، التي شكلت الأسس الابستمولوجية للعلوم الاجتماعية الاستعمارية وللإيديولوجيا الاستعمارية. بغض النظر عن أسسها النظرية المشبوهة في النظر إلى الإنسان اللا غربي أو إلى خلفياتها الإيديولوجية الممتدة للاستشراق، فإنها لم تتجاوز منهجياً تزامنيتها القاتلة، في اقتصارها على الحاضر والتجربة الملموسة في مقابل تهميش التجارب التاريخية المتميزة للثقافات الشرقية، كما هو الشأن لثقافتنا العربية. لكن، هل ينطبق ذلك على الانثروبولوجيا اليوم؟ هل ما زالت مرتبطة بالاستعمار وإيديولوجيته؟ هل ما زالت تنظر إلى الآخر كماض للثقافة الغربية؟ هل ما زالت المعرفة الانثروبولوجية، تزامنية صرفة؟ هل ما زالت تنظر إلى الإنسان غير الغربي، كآخر متوحش، أو إنسان من درجة ثانية، أو كماضٍ- حاضر (لكعشمي، 2019).

خلاصة القول: نستنتج أنه تم إحداث الانثروبولوجيا السياسية تحت تأثير الاستعمار، لأن المجتمعات التي درسها الانثروبولوجيون كانت قد تمت إعادة هيكلتها، لكي تكون تابعة سياسياً واقتصادياً للخارج، بمعنى أن الهدف من هذا التخصص لم يتأسس أساساً انطلاقاً من ضرورات معرفية، بل انطلاقاً من تاريخ علاقات الغرب بباقي العالم. هذا يعني أن تاريخ توسع المجتمعات الرأسمالية الأوروبية شكّل الإطار الذي ولدت فيه الانثروبولوجيا السياسية (بيلون، 2018: 5).

ويعني ذلك أن الحضارة الغربية المادية التي تمتلك زمام القوة والسلطة المادية على مستوى العالم أجمع، حيث يعتبر الاستعمار الأوروبي أحد أهم مفرزاتها، قد بدأت مرحلة الهبوط والانحدار لا بسبب فقدانها القوة المادية أو القوة الاقتصادية ولكن بسبب إفلاسها في عالم القيم السامية والأخلاق الفاضلة والمبادئ الإنسانية العادلة، وبسبب فقدانها الهدف والمنهج القويم الذي ترتكز عليه الحضارات وبسبب انحرافها عن الطريق الصحيح، وبسبب عنصريتها وعدوانيتها التي وصلت إلى حد من البشاعة لم تصل إليه في تاريخ الإنسانية الطويل.

وإذا لم يتدارك الأمر دعاة الإصلاح من العلماء والفلاسفة وعلماء الاجتماع والساسة والمسؤولين ورجال الدين ويقوموا بواجبهم في إصلاح وإنقاذ هذه الحضارة الغربية المادية الآيلة للسقوط، حيث يجب على هؤلاء القيام بعملية إصلاح جذرية تشمل كل مجالات الحياة الاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية والروحية وحتى المادية منها،

فالحضارة الغربية بحاجة ماسّة إلى عملية إصلاح جذري تُصلحها من الجذور لأنها حضارة بُنِيَتْ على أسس فاسدة ستؤدي بها إلى الهبوط والانهيار ولو بعد حين. وفي المقابل نعترف أن لهذه الحضارة الفضل في أنها قدمت الاختراعات والابتكارات واستطاعت السيطرة على الموارد الطبيعية وتسخيرها في خدمة الإنسان، لكنها حولّت كل مفرزات تلك التطورات للسيطرة على الإنسان نفسه، الإنسان (غير الغربي) الذي لا يمتلك مفاتيح المعرفة والعلم والتطور والشاهد على ذلك أنها وظفت العلوم الإنسانية، وبالأخص الانثروبولوجيا لإحكام سيطرتها على كل المجتمعات غير الأوروبية التي ينظر إليها باعتبارها من مخلفات المجتمعات الحديثة.

المبحث الخامس: أهمية الدراسات الانثروبولوجيا في خدمة وتنمية المجتمعات الإنسانية:

استطاعت السلطة السياسية في العالم الغربي استغلال وتوظيف نتائج دراسات وأبحاث العلوم الإنسانية والاجتماعية لتحقيق مصالحها وغاياتها في كثير من المواقف ويعود ذلك إلى ظاهرة تفوق العالم الغربي التي منحته إمكانات القوة وفتحت له أبواب السيطرة والهيمنة وصوغت له ممارسة العنف بدون حسيب ولا رقيب ليست قدراً إلهياً ولا حتمية إنسانية، وإنما جاءت بناءً على جهد بشري وتخطيط إنساني وعمل اجتماعي وسياسي متواصل ودؤوب خلال أجيال متعاقبة قامت على أكتافها المدنية الأوروبية.

وفي مجالي الطبيعة والإنسانيات، إذ منذ عصر النهضة أطلق المفكرون الأوروبيون شعار السيطرة على الطبيعة من خلال الاهتمام بالعلوم المادية من رياضيات، وفيزياء، وكيمياء، وميكانيك، وفلك، وطب... وانطلقت الجامعات والمعاهد في سباق وتنافس للظفر بالسبق بالاختراعات الجديدة، وقد انتهى هذا الاهتمام العلمي بظهور الثورة الصناعية التي نقلت الإنسان الأوروبي من مشروع السيطرة على الطبيعة إلى التفكير في مشروع السيطرة على الإنسان والشعوب، وكانت هذه هي البداية الثانية للاستعمار بعد بدايته الأولى مع الإسبان والبرتغال في القرن الخامس عشر الميلادي. ومن الثورة الصناعية، انتقلت أوروبا إلى مضاعفة جهودها في البحث العلمي في العلوم الطبيعية الدقيقة حتى وصلت إلى الثورة العلمية المعاصرة في مجال التكنولوجيا والمعلومات. وكلما ازداد الغرب تقدماً واكتشافاً ازدادت الهوة بينه وبين الشعوب المستعمرة سابقاً.

في حقيقة الأمر، كانت بداية تطور وتقدم العلم الغربي الحديث متشابكاً بشكلٍ لا فكاك منه مع الاستعمار، وخاصة الإمبريالية الأوروبية الاستعمارية. ومن بين تلك العلوم في المجال الاجتماعي "الانثروبولوجيا". إلا أن الموقف لم يبقى على حاله وبالأخص بعد حصول معظم البلدان الواقعة تحت سيطرة الاستعمار على استقلالها، فشنت العديد من البلدان المتحررة حرباً أخلاقية ضد علم الانثروبولوجيا واعتبرته علماً استعمارياً يجب إبعاده وعدم الاعتراف به بسبب تعاون الانثروبولوجيين مع المستعمر ومده بالمعلومات والنتائج تمهيداً لاحتلالها (الوزاني، 2016).

أجبرت تلك المواقف الانثروبولوجيا تحت تأثير الاتجاهات التحررية في الستينيات والسبعينيات إلى إعادة التفكير في علاقاتها وارتباطها مع السلطة السياسية (الاستعمار)، وتوصل الانثروبولوجيون إلى قناعة مفادها أنه يجب إعادة الاعتبارات الإنسانية لعلم الانثروبولوجيا وتوظيف أبحاثها في خدمة المجتمعات الإنسانية لا السيطرة عليها. والدليل على ذلك رفض عدد كبير من الانثروبولوجيين توظيف علمهم لخدمة الإدارة الحكومية أياً كان نوعها وهدفها، على أساس أن ذلك يمثل استخداماً غير أخلاقياً لمعلوماتهم عن الشعوب أو المجتمعات التي أولتهم الثقة ومنحتهم فرصة الدراسة.

كما أصر هذا الاتجاه السائد في فترة التحرر على استخدام نتائج الدراسات والأبحاث الانثروبولوجية لمساعدة المجتمعات النامية على النهوض والتقدم في إطار عمليات التغير الاجتماعي والاقتصادي والتنمية الشامل (العربي، 2019: 72). وهذا يعني بطبيعة الحال أن الانثروبولوجيا المعاصرة قد تبدل موقفها من الإنسان غير الغربي

ولم تعد تنظر إليه كآخر متوحش، أو إنسان من درجة ثانية بسبب تغير الأوضاع السياسية على مستوى العالمي بعد الحرب العالمية الثانية، إضافة إلى التحولات المجتمعية الجذرية التي شهدتها المجتمعات الغربية وغير الغربية لاحقاً، من عولمة، وتعميم للحضريات الجديدة، وتطور وسائل الاتصال... وَضَعَ ما سُمِّي بالعلوم الاجتماعية الاستعمارية الانثروبولوجيا تحديداً في أزمة. وضعها موضع سؤال. وهو ما فرض عليها أن تعيد النظر في ذاتها: موضوعاً ومنهاجاً (لكعشي، 2019).

نشأت في عام 1968 الجمعية الانثروبولوجية لبحث قضايا المسؤوليات الأخلاقية للانثروبولوجيين تجاه المجتمعات والجماعات التي قاموا بدراستها، حيث تم مناقشة سؤال رئيسي وهو كيف ولمصلحة من تستخدم البحوث الانثروبولوجية؟ وانتهت إلى إصدار بيان أو وثيقة الأخلاقيات عام 1973 تحددت من خلالها علاقة الانثروبولوجيين ومسؤولياتهم الأخلاقية والأكاديمية تجاه الأفراد الذين يدرسونهم، وعلاقتهم بالحكومات المضيفة وأيضاً تحديد مسؤولياتهم المهنية تجاه زملائهم وطلابهم. منعاً لانحراف الأبحاث والدراسات الانثروبولوجية عن مساراتها في خدمة الإنسانية (العربي، 2019: 72).

إن جميع البشر هم إخوة بالإنسانية ولكل منهم حضارة وثقافة يعتز بها التي تعتبر تراثاً مشتركاً بين جميع البشر، فالعلم يجب أن يسخر في خدمة الجميع وليس لتفضيل شعب عن شعب آخر نتيجة للون بشرته أو لغته أو انتمائه القومي أو الديني، واعتبار أن جميع البشر يمكن لهم أن يساهموا في بناء الحضارة الإنسانية والتأثير فيها بطريقته الخاصة، وهذا يترتب على عالِم الانثروبولوجيا أن يضع علمه في خدمة هذه الأهداف النبيلة وليس في تفرقة الشعوب... هذا ما تطمح إليها الانثروبولوجيا المعاصرة (منصور، 2016: 85).

خلاصة القول، صحيح أن الانثروبولوجيا قدمت خدمة بالغة الأهمية للاستعمار، وقد كانت على علاقة وطيدة به طيلة الفترة الاستعمارية، استطاع من خلالها الانثروبولوجيون أن يجمعوا رصيداً كبيرة من المعارف الثمينة عن المجتمعات الإنسانية، التي لازالت لم تحض بالنقد العلمي وإزالة كل الشبهات الإيديولوجية عنها. لكن يبقى الدور الملقى على الحكومات، حتى يكتمل تحررها من براثن الإيديولوجيا الاستغلالية أن تعيد النظر والقراءة المتعمقة لهذا الموروث المعرفي، واستغلاله في خدمة الإنسانية والتعايش السلمي والاجتماعي، بالإضافة إلى تفعيل دوره في عملية تنمية المجتمعات المدروسة من قبل الانثروبولوجيا والفكر السوسيولوجي الذي ارتبط أيضاً بالنظريات الغربية بعد الاستقلال وفرض نفسه على هذه الشعوب عقوداً طويلة من الزمن، حيث نشأ الرعيل الأول على هذا الفكر المهمين على الدراسات والأبحاث الإنسانية والاجتماعية. بينما الحقيقة التي ينبغي أن تبرز في ميدان العلوم الاجتماعية هي أن يتحرر كل من علماء الانثروبولوجيا والسوسيولوجيا من الأفكار والمناهج الغربية (العربي، 2019: 82)، إذا ما أرادوا تأسيس علوم اجتماعية حقة تسعى إلى حل المشاكل والقضايا التي تعترض استقرار وتوازن أفراد المجتمع مع واقعهم، بالإضافة إلى تحرر الإنسانية من كل عوامل استغلال واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان. وبناء جسور التعايش السلمي والإنساني بين شعوب العالم التي تشترك جميعها مفهوم الإنسانية الذي لا يتجزأ.

كما لم يعد اليوم مقبولاً، لدى مثقفينا العرب، النظر إلى الانثروبولوجيا نظرة كلاسيكية، عتيقة، ومتقادمة، أي كعلم يدرس المجتمعات التقليدية والمستعمرة، لأن انثروبولوجيا اليوم، تجاوزت ذاتها إلى انثروبولوجيا مغايرة، انثروبولوجيا العالم المعاصر. إننا إذاً أمام أنثروبولوجيا جديدة لعالم جديد: عالم المدينة، عالم التفردات والكونية، الوحدة والتعدد، الأمكنة واللا أمكنة، الحداثة وما فوق الحداثة، الهوية والاختلاف، المحلي والكوني.. عالم المعنى والحرية. إنه عالم المفارقات. وعلى هذا النحو، فإننا في حاجة ملحة للانثروبولوجيا. انثروبولوجيا للعوالم المعاصرة (لكعشي، 2019).

أهم الاستنتاجات من البحث:

1. توصل البحث إلى نتيجة مفادها أن هناك علاقة ارتباطية بين نشوء الانثروبولوجيا كتخصص أكاديمي يهتم بدراسة المجتمعات البدائية وبين مفهوم الاستعمار الأوروبي التوسعي، وقد اتفقت هذه النتيجة مع دراسة بوحسون العربي حول وجود تلك العلاقة، إلا أن الباحث يرى أن البحث الحالي قد تجاوز أسلوب تحليل وتفسير دراسة بوحسون حول طبيعة العلاقة القائمة بينهما.
2. أثبت البحث أن العقلانية الأداتية التي ارتكز عليها الاستعمار كان لها الدور الأساسي في انحراف الانثروبولوجيا عن مساراتها العلمية في خدمة القضايا والمشاكل الإنسانية، مما جعلها أداة للسيطرة والهيمنة الاستعمارية على شعوب العالم النامي. علماً بأن الدراسات السابقة التي استعرضها الباحث لم تتعرض لتحليل وتفسير عقلية الاستعمار وآلية تفكيره التي شكلت مجمل رؤيته للطبيعة والإنسان.
3. توصل البحث إلى أن الانثروبولوجيا كان لها دورٌ مهمٌ في فهم التطورات التي عاشتها البشرية، لكن النتائج التي توصلت إليها لم توظف في خدمة البشرية بل بقيت حبيسة في مكاتب سلطة الاستعمار وأتباعه من أجل استغلالها في التخطيط للسيطرة على المجتمعات المختلفة عن الأثنية الأوروبية.
4. بيَّنَ البحث أنه تم تصحيح مسار توظيف الدراسات الانثروبولوجية في ترسيخ مفاهيم التعايش والتفاهم السلمي والتواصل الإنساني بين مختلف شعوب وحضارات العالم وفي معالجة المشاكل والقضايا التي تعاني منها الدول التي وقعت تحت سلطة الاستعمار.
5. توصل البحث إلى أن أحداث السياق الاجتماعي وتفاعلاته وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية أدت إلى بروز الاتجاهات التحررية في الستينيات والسبعينيات في كثير من الدول مما اجبر الانثروبولوجيا إلى إعادة التفكير في علاقاتها مع السلطة الاستعمارية، كما توصل الانثروبولوجيون إلى قناعة مفادها أنه يجب إعادة الاعتبارات الإنسانية لعلم الانثروبولوجيا وتوظيف أبحاثها في خدمة المجتمعات الإنسانية لا السيطرة عليها. وقد تشابهت تلك النتيجة مع دراسة مرقومة منصور، إلا أن البحث الحالي قد تجاوز الدراسة السابقة في طرحها وتحليلها للتغيرات التي طالت الانثروبولوجيا على الصعيد الأخلاقي والمهني، وبالأخص فيما يتعلق بمصير توظيف نتائج الدراسات والأبحاث الانثروبولوجية.

التوصيات والمقترحات:

استناداً لنتائج البحث يوصي البحث ويقترح بالآتي:

1. ضرورية صياغة ميثاق أخلاقي لتوجيه مسارات الدراسات الانثروبولوجية بما لا يتعارض مع الأهداف والغايات الإنسانية التي وجدت لأجلها.
2. يجب علينا تغيير وجهة نظرنا تجاه الانثروبولوجيا وبالأخص لدى المثقفين العرب، لأن النظرة الكلاسيكية للانثروبولوجيا نظرة أصبحت نظرة عتيقة، ومتقادمة، فلم تعد الانثروبولوجيا علم يدرس المجتمعات التقليدية والمستعمرة، بل تجاوزت الانثروبولوجيا ذاتها إلى انثروبولوجيا مغايرة، في العالم المعاصر، بهدف توظيف نتائج أبحاثها ودراستها في خدمة الرفاه الإنساني.
3. وأخيراً، يوصي البحث بضرورة تفعيل دور أقسام الانثروبولوجيا في الجامعات العربية من منطلق ربط الجامعة بالمجتمع لإعداد دراسات وأبحاث عن المشكلات والقضايا، التي تعاني منها تلك المجتمعات، بحيث تراعي خصوصيتها حتى لا تخرج عن سياقها التاريخي في توظيف نتائجها بشكل موضوعي.

المصادر والمراجع.

أولاً- المراجع بالعربية:

- إبراهيم، شحاتة عيسى. (2015). الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر. ط1. العدد: 169. وزارة الثقافة. الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة.
- إبراهيم، عبد الله علي. (بدون تاريخ). الشريعة والحداثة (جدل الأصل والعصر). مركز البحوث العربية والإفريقية. القاهرة. كتب عربية.
- أبو زينة وآخرون، فريد كامل. (2007). مناهج البحث العلمي (طرق البحث النوعي). ط2. دار المسيرة. عمان.
- أوجيه، مارك. كولاين، جان بول. (2008). الانثروبولوجيا. ط1. (ترجمة: جورج كتورة). دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت.
- بارث وآخرون، فريدرك. (2017). الانثروبولوجيا حقل علمي وأربعة مدارس. ط1. (ترجمة، أبو بكر أحمد باقادر وإيمان الوكيلي). (مراجعة، ساري حنفي). المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. بيروت.
- بن محمد، خواجة عبد العزيز. (2014- 2015). محاضرات في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية في جامعة غرداية. الجزائر.
- تيلوين، مصطفى. (2011) مدخل عام في الانثروبولوجيا. ط1. دار الفارابي ومنشورات الاختلاف. بيروت والجزائر.
- جمعة، مصطفى عطية. (تاريخ النشر على موقع المجلة. 2/ 5/ 2018). المفاهيم المؤسسة لآداب ما بعد الاستعمار. مجلة البيان. الرياض. http://www.albayan.co.uk/Article2.aspx?id=6216
- الجندي، أنور. (بدون تاريخ). الاستعمار والإسلام. دار الأنصار. القاهرة.
- حامدي، صدام. (2016/2015). أسس بناء المنهج النقدي عند أنور الجندي. رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي. جامعة قصدي مرباح ورقلة.
- حسن، سمير إبراهيم. (2012). تمهيد في علم الاجتماع. ط1. دار المسيرة. عمان.
- الحسني، السيد نبيل. (2009). الانثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية. ط1. قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، العراق.
- الحيدري، إبراهيم. (الأربعاء 12 سبتمبر 2012). كسوف العقل. مجلة إيلاف الإلكترونية. https://elaph.com/Web/opinion/2012/9/760360.html
- الربيعي، اسماعيل نوري. (بدون تاريخ). التاريخ: قراءة ما بعد الاستعمار. مجلة الساتل. جامعة السابع من أكتوبر. مصراتة.
- رودني، والتر. (ديسمبر / كانون الأول 1988). أوروبا والتخلف في إفريقيا. العدد: 132. (ترجمة، أحمد القصير). (مراجعة، إبراهيم عثمان). المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. سلسلة عالم المعرفة. الكويت.
- السعدني وآخرون، عبد الرحمن. (2010) مدخل إلى البحث العلمي (المفاهيم، الأسس، الإجراءات، التقويم). دار الكتاب الحديث. القاهرة.
- شايب، قدادرة. (2007) الحزب الدستوري التونسي الجديد وحزب الشعب الجزائري 1934- 1954 (دراسة مقارنة). رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. قسم التاريخ وعلم الآثار. جامعة منتوري – قسنطينة. الجزائر.
- الشماس، عيسى. (2004). مدخل إلى الإنسان (الانثروبولوجيا). منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق.

- شيحة، ميشيل. (2003). جذور الفكر الصهيوني وسياسة التمييز العنصري في إسرائيل. العدد: 2. المجلد: 19. مجلة جامعة دمشق. دمشق.
- طرابلسي، كريم. (2018/4/23). العلماء والاستعمار... حينما استخدم الغرب العلم لتبرير التحكم بالشعوب. ميدان موقع الجزيرة.
- العربي، بوحسون. (ديسمبر 2011). الاستشراق والانثروبولوجيا والاستعمار (دراسة تحليلية لطبيعة العلاقة). العدد: الثاني. مجلة الإنسان والمجتمع. الجزائر.
- العقاد، عباس محمود. (2019). لا شيوعية ولا استعمار. مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة.
- عقيل، عقيل حسين. (1999). فلسفة مناهج البحث العلمي. مكتبة مدبولي. القاهرة.
- غانم، إبراهيم البيومي. (2008). مناهج البحث وأصول التحليل في العلوم الاجتماعية، ط1. مكتبة الشروق الدولية. القاهرة.
- الغزالي، محمد. (يناير 2005). الاستعمار– أحقاد وأطماع. ط 4. نهضة مصر. القاهرة.
- فانون، فرانز. (2007) معذبو الأرض. (ترجمة: منور شولي). (تقديم: ك. شولي). طبعة جديدة. موفم للنشر، وزارة الثقافة. الجزائر.
- فريدرك بارث وآخرون. (2017). الانثروبولوجيا حقل علمي وأربعة مدارس. ط1. (ترجمة، أبو بكر أحمد باقادر، وإيمان الوكيلي). (مراجعة، ساري حنفي). المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. بيروت.
- فضل، صلاح. (2002). مناهج النقد المعاصر. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء.
- فهيم، حسين. (فبراير 1986). قصة الانثروبولوجيا- فصول في تاريخ علم الإنسان. العدد: 98. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
- الفوال، صلاح مصطفى. (1982). علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية- علاقات ومجالات وميادين. عالم الكتب. القاهرة.
- فياض، حسام الدين. (2010). النظرية النقدية للمجتمع – مدرسة فرانكفورت نموذجاً. الناشر نحو علم اجتماع تنويري.
- فياض، حسام الدين. (2020). تطور الاتجاهات النقدية في علم الاجتماع المعاصر. ط1. داركريتار. إسطنبول.
- كريب، إيان. (شهر أبريل/ نيسان 1999). النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس. العدد)244). (ترجمة، محمد حسين غلوم. (مراجعة، محمد عصفور). سلسلة عالم المعرفة. الكويت.
- كوت، دافيد. (1971). فرانز فانون. ط1. (ترجمة، عدنان كيالي). المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.
- كيالي، عبد الوهاب. (1985). موسوعة السياسة. ط2. الجزء:1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.
- لخضر، حميدي. (2005). مشكلة التغيير عند مالك بن نبي. رسالة ماجستير. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. قسم الفلسفة. جامعة الجزائر.
- لكعشمي، عثمان. (مارس 2019). من أجل انثروبولوجيا جديدة لعالم جديد. قسم المقالات. مجلة الفيصل. الرياض. https://www.alfaisalmag.com/?p=15189
- لكلرك، جيرار. (1990). الانثروبولوجيا والاستعمار. ط1. (ترجمة، جورج كتورة). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
- لومبار، جاك. (1997). مدخل إلى الاثنولوجيا. ط1. (ترجمة، حسن قبيسي). المركز الثقافي العربي. بيروت.

- ليلة، علي. (2012). الأمن القومي في عصر العولمة (اختراق الثقافة وتبديد الهوية). ط1. الكتاب:1. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة.
- ماكفيت جيه دي، مونتجمري. (2019). الانثروبولوجيا ومكافحة التمرد. مركز تنمية الفكر الاستراتيجي. بدون مكان نشر.
- مالكي، محمد. (1994). الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي. ط2. سلسلة أطروحات الدكتوراه (20). مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.
- مجاهد، حورية توفيق. (1975). الاستعمار كظاهرة عالمية (حول الاستعمار والإمبريالية والتبعية). عالم الكتاب. القاهرة.
- محيي الدين، عمار. (الجمعة 7 ديسمبر 2018). الاستعمار الثقافي والفكري وخطره على الشعوب. العدد: 19741. مجلة الثورة (اليمينية).
- مرتضى، عبد الملك. (2007). في نظرية النقد. ط1. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة.
- منصور، مرقومة. (2016). الانثروبولوجيا والنزعة الاستعمارية الحديثة. المجلد:4. العدد:8، مجلة التدوين. الجزائر.
- منى، زياد. (19/4/ 2012) مثقفون... وما شبه لنا. موقع الجزيرة نت. قسم المقالات/ تحليلات/ العالم العربي. قطر. https://www.aljazeera.net/opinions/2012/4/19/%D9%85%D8%AB%D9%82%D9%81%D9%88%D9%86-%D9%88%D9%85%D8%A7-%D8%B4%D8%A8%D9%87-%D9%84%D9%86%D8%A7
- ميمون، سفيان. (تاريخ 2018/3/16). الجزائر وانثروبولوجيا الاستعمار. العدد: 5817. الحوار المتمدن. https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=592455
- نبيل، سلمى. (12 ديسمبر، 2019). القتل باسم الحضارة ... كيف كان يفكر المستعمر؟. مجلة المحطة الإلكترونية.
- النعيمي وآخرون، محمد عبد العال. (2009). طرق ومناهج البحث العلمي. ط1. الوراق للنشر والتوزيع. عمان.
- الوزاني، الطيب بن المختار. (2016/7/19). مرتكزات الهيمنة الغربية على العالم. موقع إسلام ويب. https://www.islamweb.net/ar/article/211084/
- يانج، روبرت. (2003). أساطير بيضاء كتابة التاريخ والغرب. ط1. العدد: 616. (ترجمة، أحمد محمود). المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة.
- يسين، السيد. (1991). التحليل الاجتماعي للأدب. ط3. مكتبة مدبولي. القاهرة.

ثانياً: مراجع الأجنبية:

- Borras, Eduardo Ysern.(1984). The Colonized Personality: Frantz Fanon's Concept of the Psychology of People Living Under Socio- Political Conditions Colonialism. PH.D. the Wright Institute Berkeley. University Microfilms International.
- Hokhiemer, M. (1974) . The Eclipse of Reason. New York. Continuum.
- Kebede, Messay. (2001). the Rehabilitation of Violence and the violence of Rehabilitation: Fanon and Colonialism. Vol:31. No:5. May Journal of Black Studies. London. Sage Publication.
- T. Parris, LaRose. (November. 2011). Frantz Fanon: Existentialist, Dialectician, and Revolutionary. Vol:4. No:7. The Journal of Pan African Studies.